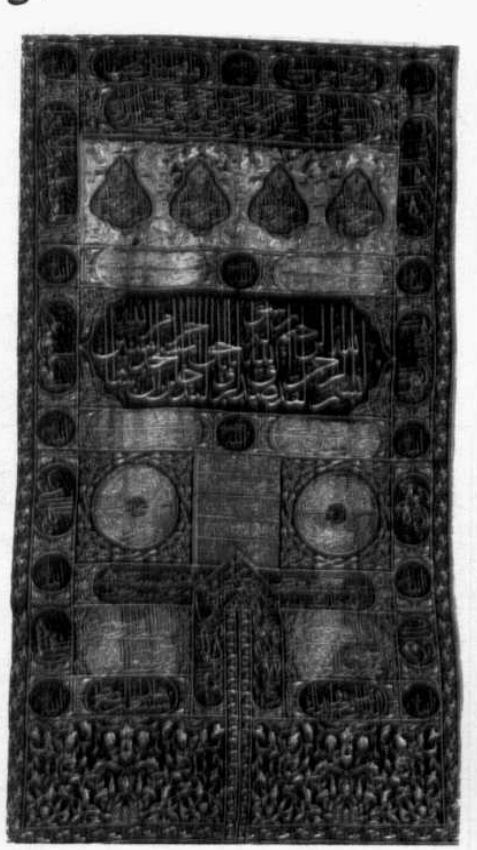


مكة المكرمة

فى الجاهلية وبداية الإسلام



أستار باب الكعبة فى عهد السلطان عباس حلمى
سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م

تأليف
د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف
أستاذ التاريخ الإسلامى - كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



المحمل عليه أستار الكعبة أيام الخديو عباس

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
ثريا إبراهيم حسين

٩٥٦,٠١
ع ب م ك

عبد الشافى محمد عبد اللطيف.
مكة المكرمة فى الجاهلية وبداية الإسلام/ تأليف عبد الشافى محمد عبد اللطيف. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٧.
٧٦ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الإسلامى؛ ٢).
ببليوجرافية: ص ٧٦.
تدمك: ٧ - ٢٠٩٠ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - نشأة مكة المكرمة. ٢ - تاريخ الكعبة. ٣- مولد النبى ﷺ. ٤- ظهور الإسلام. ٥- مكة وانتشار الإسلام.
أ - العنوان. ب - السلسلة.

رقم الإيداع: ٧٦٥٨ / ٢٠٠٦

دار الفكر العربى

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

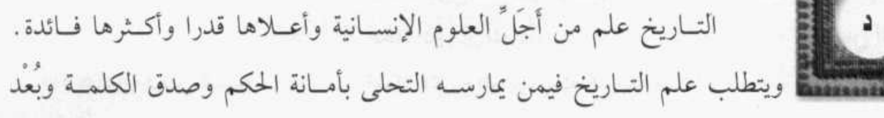
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

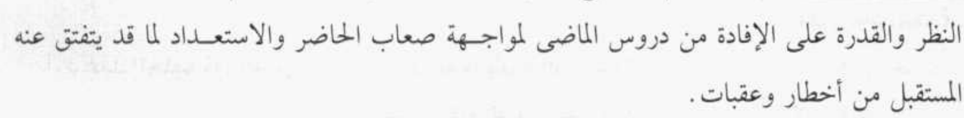
INFO@darelfikrelarabi.com



تقديم السلسلة



التـاريخ علم من أَجَلّ العلوم الإنسـانية وأعـلاها قدرا وأكـثرها فـائدة. ويتطلب علم التـاريخ فيمن يمارسـه التحلى بأمـانة الحكم وصدق الكلمـة وبُعْد



النظر والقدرة على الإفادة من دروس الماضى لمواجـهة صعاب الحاضر والاستعـداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

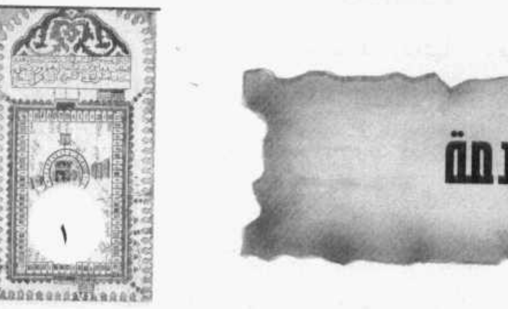
إن الروايات التاريخـية قد تـتشابه فى بعض أجـزائها على مدى الدهـور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسيـة وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

وقد أدرك هذه الحـقيقـة كثير من الـهيئات الثـقافيـة، فجعلوا للتـاريخ حقه من الاهتـمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسهـا الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجـال خدمة الثقافة العربيـة. والتى وضعت مشروعا للثقافـة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لـهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخـصصين داخل الجامعات العربية وخارجهـا. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميـمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التـاريخية ليسعدها أن تقـدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور





الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وبعد.

فى الصفحات التالية موجز لتاريخ مكة المكرمة منذ نشأتها حتى وفاة الرسول ﷺ ومكة المكرمة هى أم القرى، والبلد الأمين، الذى أقسم به الله تعالى فى كتابه العزيز، والتى قامت حول أول بيت وضع للناس فى الأرض لعبادة الله وحده، وهى أحب بلاد الله إلى الله ورسوله ﷺ.

لقد ارتبطت نشأة مكة المكرمة بإعادة بناء البيت الحرام - الكعبة المشرفة - على يد أبى الأنبياء، إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وقبل هذا لم يكن لمكة وجود، وبدأ وجودها عندما ظهر ماء بئر زمزم تكرمة من الله تعالى لهاجر وابنها إسماعيل، فعندئذ تنبهت قبيلة جرهم اليمنية لوجود الماء فى مكان لم يكن مألوفا أن يوجد فيه واستأذنوا هاجر أن يقيموا معها فى المكان لينتفعوا بالماء فأذنت لهم، فبدأوا يقيمون مساكنهم فكانت هذه أول نشأة مكة المكرمة، ولما شب إسماعيل عليه السلام واشترك مع أبيه إبراهيم الخليل عليه السلام فى بناء الكعبة المشرفة، ثم تزوج من قبيلة جرهم، ثم كان هو المسئول عن شؤون الكعبة الدينية، بينما كانت قبيلة جرهم مسئولة عن الشؤون الأخرى كالأمور الاقتصادية والاجتماعية. . إلخ.

ظلت قبيلة جرهم تهيمن على أمور مكة - التى أصبحت مقصد كل العرب لزيارة البيت والتجارة فترة من الزمن، ثم ضعف شأنها فحلّت محلها قبيلة يمنية أخرى هى قبيلة خزاعة، وظلت كذلك تهيمن على أمور مكة إلى أن ضعفت هى بدورها وجاء دور قصى بن كلاب بن مرة الجد الرابع للرسول محمد ﷺ، الذى جمع قريشا من البوادى وأسكنهم مكة، وفى عهد قصى خطت مكة خطوات كبيرة نحو النمو والازدهار، فقد أنشأ العديد من التنظيمات الدينية كالسقاية والرفادة والسدانة وكلها مرتبطة بالكعبة المشرفة، ثم أنشأ دار الندوة، الذى كان أشبه بدار برلمان أو حكومة لقريش، ثم تابع أبناؤه وأحفاده مسيرته فى النهوض بأمر مكة المكرمة التى أصبحت إلى جانب مكانتها الدينية أهم مركز تجارى فى بلاد العرب، وأنشأت علاقات خارجية مع الدول الكبرى المجاورة، مثل الفرس والروم، ثم جاء دور عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ﷺ، الذى كان أبرز زعماء مكة والذى أكرمه الله تعالى بأن أعاد حفر بئر زمزم مرة أخرى على يديه - بعد أن



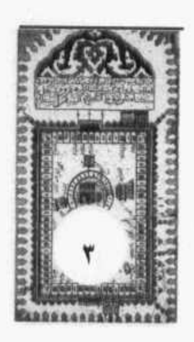
كانت قبيلة جرهم قد ردمتها - وفى عهد عبد المطلب كان الغزو الحبشى لمكة المكرمة بهدف هدم الكعبة، وكان ذلك نحو عام ٥٧٠م وهو العام الذى ولد فيه النبى ﷺ وهو المعروف بعام الفيل، وكما هو معروف فقد مات والده عبد الله بن عبد المطلب قبل أن يولد هو، ثم ماتت أمه وهو فى السادسة من عمره، فرعاه جده عبد المطلب ولما توفى كفله عمه أبو طالب، واشتغل هو برعى الغنم ليشارك فى نفقة معيشته، ولما كبر اشتغل بالتجارة، ومن أشهر أعماله رحلته إلى الشام فى تجارة خديجة بنت خويلد، التى رغبت فى الزواج منه، لما اشتهر به بين قومه من الصدق والأمانة، وتم الزواج وأنجب منها ولدين وأربع بنات، ولقد كان يشارك قومه فى شؤونهم العامة، فقد اشترك فى بناء الكعبة، ثم شهد حلف الفضول.. إلخ.

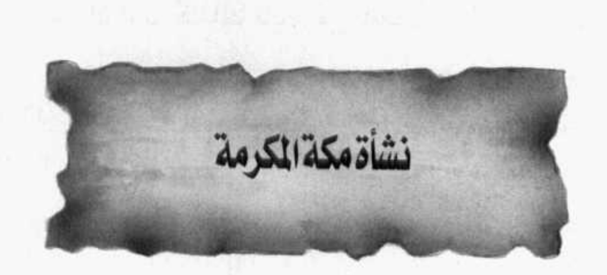
ولما بلغ الأربعين من عمره جاءه الوحى بالرسالة الإسلامية فى غار حراء فى لحظة خالدة من شهر رمضان، فعاد إلى بيته وبلغ خديجة بما حدث معه وأفضى إليها بما كان يحس فى نفسه من الخوف ولكنها طمأنته، وكانت أول من آمن به، ثم تبعها على بن أبى طالب - الذى كان يعيش معهما - ثم تبعهما مولاه زيد بن حارثة، ومن خارج الأسرة أبو بكر الصديق، وتتابع دخول السابقين الأولين فى الإسلام، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم سرا فى دار الأرقم ثم أمره ربه بالجهر بالدعوة، وهنا جن جنون قريش ووقف معظم رجالها موقف العداء المطلق من الرسول ﷺ ودعوته، وآذوه وعذبوا أصحابه، فهاجر إلى يثرب - المدينة المنورة - حيث استقبل أعظم استقبال من الأنصار، وعلى الفور بدأ فى بناء الدولة الإسلامية، بسلسلة من الإجراءات، مثل تأسيس المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم المعاهدة مع اليهود، واضطر إلى خوض سلسلة من الحروب مع أهل مكة توجت بانتصاره العظيم عليهم وبفتحها، ذلك الفتح العظيم الذى عاملهم فيه بتسامح عظيم وعفى عنهم فأسلموا جميعا، وأصبحوا جند الله الفاتحين، وبفتح مكة فتحت كل السبل أمام الإسلام لينتشر فى بلاد العرب ثم فى العالم فيما بعد.

وفى شهر ذى الحجة من العام العاشر الهجرى، زار النبى ﷺ مكة المكرمة لآخر مرة وأدى فريضة الحج وودع أمته، لأنه بعد عودته من مكة بعدة شهور فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ بعد أن بلغ رسالته وأدى أمانته، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك فجزاه الله خير ما جزى نبيا عن أمته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

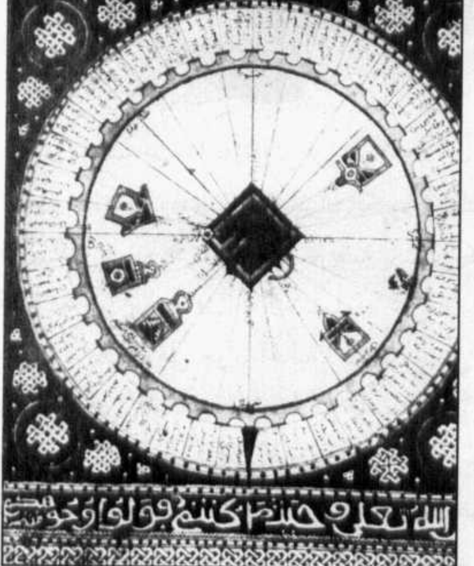




نشأة مكة المكرمة

ارتبطت مكة المكرمة من حيث نشأتها وتطورها بوجود الكعبة المشرفة فى ذات المكان الذى قامت فيه، فقبل تجديد الكعبة المشرفة على أيدى إبراهيم - أبى الأنبياء - وابنه إسماعيل عليهما السلام لم يكن لمكة المكرمة وجود لأن المكان الذى نشأت فيه بعد تجديد الكعبة المشرفة لم يكن يصلح للإقامة الدائمة، لافتقاره إلى شىء أساسى لا يستغنى عنه أى كائن حى، وهو الماء فلما وجد الماء الذى نبع من بئر زمزم أصبح المكان صالحا للسكنى والعمران، ومن هنا نشأت مكة المكرمة.

والكعبة المشرفة بنيت قديما - فى تاريخ موغل فى القدم لا يعلمه إلا الله تعالى - والذين أرخوا لها يذهبون إلى أن أول من بناها الملائكة وكانوا يطوفون حولها، ثم جدد بناءها آدم عليه السلام، عندما وجد ثم شيث ابنه، وهكذا ظل البناء قائما إلى أن غمره طوفان نوح عليه السلام، فيما غمر من الأرض.



مخطوط مؤرخ بسنة ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م يصور الكعبة المشرفة مركزا للعالم الإسلامى

وظل مكانها مجهولا لا يعلمه أحد إلى أن شاء الله تعالى تجديدها وإعادة بنائها فدل إبراهيم عليه السلام على المكان الذى قامت فيه الكعبة المشرفة من جديد، يقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ...** (٢٦) ﴾ [الحج]، والمفسرون يقولون: بوأنا لإبراهيم مكان البيت يعنى دللناه عليه وحددناه له.. إذن عمل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام لم يكن هو الإنشاء الأول للكعبة، وإنما كان تجديدا لبناء كان قائما قديما؛ لأن الله تعالى أخبرنا فى كتابه العزيز أن الكعبة هى أول بيت وضع للناس فى



الأرض، ولما كان الأمر كـذلك فليس من المعقول أن يكون إبراهيم علـيه السلام هو أول من بناها؛ لأنه كان قـبل إبراهيم عليه السـلام أنبياء ومـرسلون، وكانوا يعبدون الله تعالى فى بيوت، فقد كان نـوح وهود وصالح عليهم جميعا أفضل الصـلاة والسلام قـبل إبراهيم، وكانوا يـعبـدون الله تعالى ويأمـرون أقوامـهم بعبادته، ومن الطبيعى أن يكون ذلك فى بيوت عبادة، ثم إن تاريخ إبراهيم عليه السلام أصبح مـعروفا لنا بشكل جلى، فهـو كان موجودا فى القـرنين العشرين والتاسع عـشر قبل مـيلاد المسيح عليـه السلام، ومعنى ذلك أن بيـننا وبينه مدة تاريخية تقرب من أربعة آلاف عام، وليس مـعقولا أنه قبل هذه الآلاف الأربعة من الأعوام - وهى مدة قصـيرة للغاية فى عمر الزمن - لم يكن عـلى الأرض بيوت يعبد الله فيـها، إذن الأولية التى أشار إليهـا القرآن الكريم بالنسبة للكعبـة المشرفة تنصرف إلى بناء سابـق على وجود إبراهيم عليه السلام بزمن طويل، وأن عمل إبراهيم عليه السلام هو تجديد، ورفع لـقواعد البيت من جديد كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (١٢٧) ﴾ [البقرة].



إبراهيم عليه السلام ولد فى أور - جـنوب العراق - ولما كلفه الله تعالى بالرسالة كـما تقول المصادر الدينية؛ وأهمـها هنا القرآن الكريم ثم التوراة وقف قومـه ضده ولم يؤمنوا به وفى النهاية قرروا قتله بأبشع طريقة، وهى تحريقـه بالنار، لكن الله تعالى نجاه، وقال للنار: ﴿ ...**كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** (٦٩) ﴾ [الأنبيـاء]، على أثر ذلك هاجر مـن جنوب العراق إلى شـماله - إلى منطقة حاران، وهى حرّان الحالية - ثم هاجر إلى فلسـطين، ثم قام بزيارة إلى مصـر، طلبا للميرة - أى الطعام - لأن الجـوع فى أرض فلسطين كان شـديدا - كما تقـول التوراة: ولما عاد من مـصر ومعه هاجـر - الجارية التى أهديت له أو لزوجه سارة، ولما كانت سـارة لم تلد له ولدا حتى ذلك التاريخ - كان عمـره ستة وثمانين عاما - فقـد نصحته وهى ابنة عمه وتعـرف حنينه ورغبته فى أن يكون له ولد - نصحته بأن يتزوج هاجر المصرية، عسى الله أن يرزقه منها بولد تقر به عينه، فقبل النصيـحة وتزوج هاجر وأنجب منها ابنه إسـماعيل عليـه السلام، وهنا - كما تقـول التوراة - دبت الغيرة فى نفس سارة تجاه هاجر، التى أنجبت لإبراهيم ولدا، وطلبت منه أن يبعدها عنها، لأنها لم تعد تطيق رؤيتهـا فاستجاب لمطلبـها وذهب بهاجر وابنها وأسكنهـا فى المكان الذى وصفه الله فى



القرآن الكريم على لسان إبراهيم بقوله: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** (٣٧) ﴾ [إبراهيم].



السبب الحقيقى لما صنعه إبراهيم

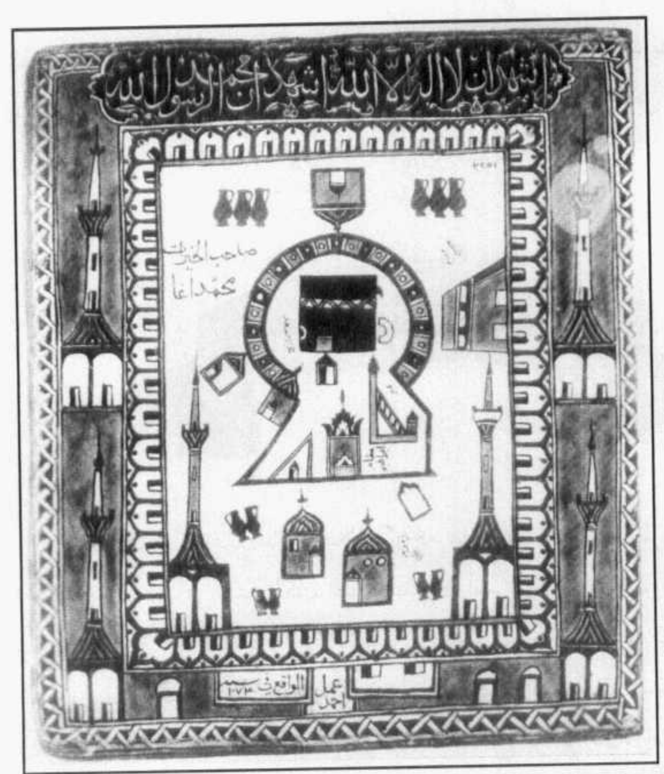
إن ذهاب إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وابنه الطفل الرضيع إسماعيل من فلسطين إلى الحجاز وتركهما فى هذا المكان القفر الذى لا أنيس فيه ولا جليس لا يعقل أن يكون بسبب غيرة سارة من هاجر؛ لأن المسافة بين فلسطين والحجاز تبلغ نحو ألف كيلو متر، فهى مسافة بعيدة من ناحية، ومن ناحية أخرى فإسكان امرأة وطفل رضيع فى مكان كهذا وحدهما أمر يتنافى مع النخوة والرجولة، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء وأبو الرجال، إذن لابد أن ما فعله إبراهيم كان بأمر من الله ولحكمة يعلمها هو وحده سبحانه وتعالى؛ لأن أمر غيرة سارة من هاجر كان يمكن حله بأيسر من هذا، فقد كان فى إمكان إبراهيم عليه السلام أن يؤجر لهاجر بيتا فى حى آخر من أحياء المدينة التى كان يعيش فيها فى فلسطين، وهى مدينة الخليل ـ حبرون ـ بحيث تكون هى وابنها قريبين منه وتحت رعايته، أما أن يذهب بهما إلى الحجاز ذلك المكان البعيد ـ فهذا هو الذى يحتاج إلى فهم الحكمة منه، وهى أن الله تعالى أراد تجديد بيته المحرم، وعلى أيدى إبراهيم بالذات؛ لذا أمره أن يذهب بهما ويسكنهما هناك؛ تمهيدا للحدث العظيم وهو إعادة بناء الكعبة.



هاجر تسأل إبراهيم

لما ذهب إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وابنه إسماعيل ـ وكان الحادى بهم الذى دلهم على المكان هو جبريل عليه السلام ـ قالت هاجر لإبراهيم بعد أن نصب لهما الخيمة وهمّ بالرجوع: «يا إبراهيم إلى أين أنت ذاهب وتتركنا فى هذا المكان الذى لا أنيس فيه ولا شىء، فلم يرد عليها، فكررت عليه السؤال ثلاث مرات، وبعد الثالثة لما لم تتلق منه ردا، قالت له: «آلله أمرك بهذا؟» قال: «نعم» قالت: «إذن فلن يُضَيِّعنا»، وهذه هى قمة الإيمان بالله والثقة فى معيته





بلاطة خزفية تصور الكعبة وما حولها - عمل أحمد الواقع سنة ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٣م

التى لا يخيب ولا يضيع من يركن إليـها، هنا تروى المصـادر أن جبريل عليـه السـلام قال لها: «يا هاجر هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه» هذا هو السبب الحـقيقى لمجىء إبراهيم عليه السلام بزوجه وابنه إلى هذا المكان الذى علـم الله أنه سـيكون مهبط آخر وحيه على خـاتم أنبيائه ورسله محمد بن عبد الله ﷺ.

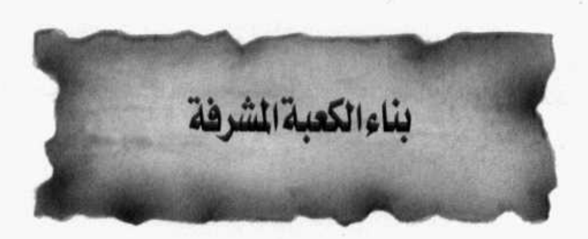


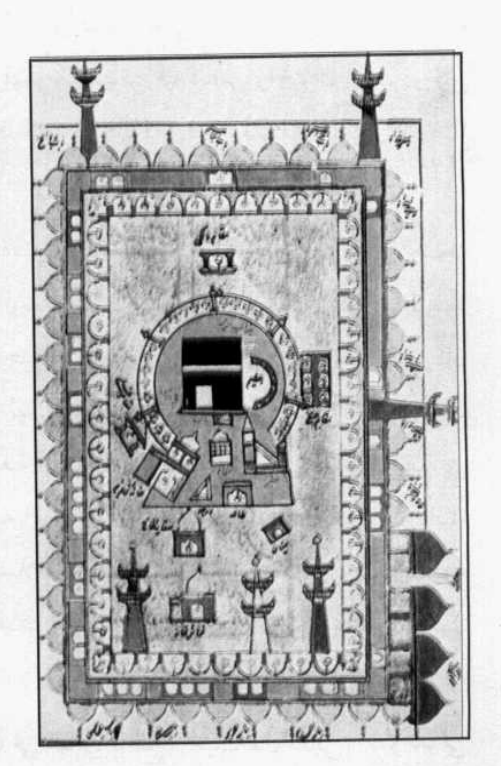
زمزم

تروى المصادر أن هاجر لما تركها إبراهيم عليه السلام هى وابنهـا إسماعيل عليه السلام وعاد إلى فلسطين نفد مـا معها من الماء وعطشت وعطش وليـدها واستبد بهـا القلق على وليدها ـ ربما أكثر من نفسها ـ فأخـذت تبحث عن الماء فى مكان هى أول من يعلم أنه لا يوجد به ماء، ولكنها اللهفة على الابن ومحاولة إنقاذه من الهلاك عطشا جعلتها تبحث وتهرول بين الصفا والمروة هرولة أصبحت ركنا من أركان الحج وهو السعى بين الصفا والمروة، هنا جاءها جبريل عليه السلام وحفر لها زمزم.



نبع الماء من المكان الذى سمى بئر زمزم، وهو مـاء له خصائص خاصة؛ روى عن جعفـر الصادق رضى الله عنه أنه قال: «كانت زمـزم من أطيب المياه وأعـذبها وألـذها وأبردها» وروى أن النبى ﷺ قـال: «ماء زمـزم لما شـرب له» ويفسر مجـاهد هذا الحديث بقوله: «ماء زمزم إن شربت منه تريد شـفاء شفاك الله، وإن شربـت لظمأ رواك الله، وإن شـربت لجوع أشبـعك الله» ويروى أن الرسول ﷺ قال: «ماء زمزم خير ماء على وجه الأرض».





رسم تخطيطى للحرم الشريف
فى مكة المكرمة



مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام



قبل أن نتحدث عن نشأة مكة المكرمة وعمن أنشأها ينبغى لنا أن نتحدث عن بناء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام الكعبة المشرفة وكيف كان ذلك البناء وكيف تطور وجدد بعد ذلك إلى الوقت الحاضر، سبق أن ذكرنا أن الكعبة المشرفة هى أول بيت وضع للناس فى الأرض كما أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً... (٩٧)** ﴾ [آل عمران].

وفى الحديث الصحيح الذى يرويه الإمام البخارى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال: «قلت يا رسول الله: أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام قلت: ثم أى؟ قال: المسجد الأقصى قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة..؟».

هذه الكعبة المشرفة، وهى بيت الله الحرام الذى فضله على بقاع الأرض كلها، وخصه بفضائل كثيرة، منها أنه جعله مثابة للناس وأمنا، فهو مكان يأمن فيه الناس والحيوان والطير وحتى الشجر، ومن خصائصه مضاعفة الثواب فيه أضعافا كثيرة. فالركعة فيه تعدل مائة ألف ركعة فيما سواه من المساجد - عدا المسجد النبوى والمسجد الأقصى - كما أخبر النبى ﷺ.

لما أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بإعادة بناء الكعبة بناها بناء مدورا من جهة حجر إسماعيل، وجعل ارتفاعها تسعة أذرع - نحوا من أربعة أمتار - ولم يكن لها سوى ركنين، الأسود واليمانى، ولم يجعل لها سقفا، وجعل لها بابا واحدا ملتصقا بالأرض من جهتها الشرقية، وكان هذا الباب مفتوحا يعنى مجرد فتحة، ولم يجعل لها كسوة وعمل حفرة على يمين الداخل إليها عمقها نحو ثلاثة أذرع، كانت تسمى خزانة الكعبة وأمام باب الكعبة إلى اليمين قليلا تقع بئر زمزم، وأمام الجدار الشرقى يقع مقام إبراهيم عليه السلام وهو الحجر الذى كان يقف لإتمام البناء عندما ارتفع عن الأرض، وكان إسماعيل عليه السلام يناوله الحجارة، أما الحجر الأسود فمكانه الركن الجنوبى الشرقى ويرتفع عن الأرض بنحو متر ونصف، ومنه يبدأ الحجاج الطواف حول الكعبة.

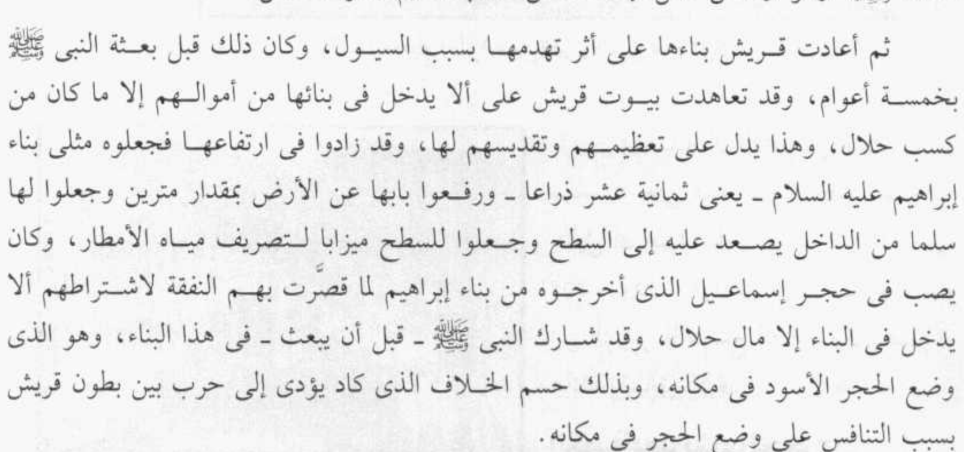
وبعد أن أتم إبراهيم البناء أمره الله أن يؤذِّن فى الناس بالحج، حيث قال تعالى: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)** ﴾ [الحج]، وهنا تروى كتب التفسير أن إبراهيم عليه السلام قال: «يا رب وما يبلغ صوتى» فقال الله له: «أذن يا إبراهيم وعلىَّ البلاغ» فوقف على جبل أبى قبيس، وأخذ ينادى: «أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا



فأسمع من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء وأجابه من آمن وسبق فى علم الله تعالى أنه يحج إلى يوم القيامة قائلين: «لبيك اللهم لبيك».

الكعبة بعد إبراهيم عليه السلام:

المنطقة التى بنيت فيها الكعبة المشرفة تكثر فيها السيول، التى كثيرا ما هدمتها، الأمر الذى تطلب إعادة بنائها مرات عديدة، بعد بناء إبراهيم عليه السلام فقد أعادت بناءها قبيلة جرهم، وقصىّ بن كلاب الجد الرابع للرسول محمد ﷺ، وهو أول من عمل لها سقفا من خشب الدوم وجريد النخل.



ثم أعادت قريش بناءها على أثر تهدمها بسبب السيول، وكان ذلك قبل بعثة النبى ﷺ بخمسة أعوام، وقد تعاهدت بيوت قريش على ألا يدخل فى بنائها من أموالهم إلا ما كان من كسب حلال، وهذا يدل على تعظيمهم وتقديسهم لها، وقد زادوا فى ارتفاعها فجعلوه مثلى بناء إبراهيم عليه السلام - يعنى ثمانية عشر ذراعا - ورفعوا بابها عن الأرض بمقدار مترين وجعلوا لها سلما من الداخل يصعد عليه إلى السطح وجعلوا للسطح ميزابا لتصريف مياه الأمطار، وكان يصب فى حجر إسماعيل الذى أخرجوه من بناء إبراهيم لما قصّرت بهم النفقة لاشتراطهم ألا يدخل فى البناء إلا مال حلال، وقد شارك النبى ﷺ - قبل أن يبعث - فى هذا البناء، وهو الذى وضع الحجر الأسود فى مكانه، وبذلك حسم الخلاف الذى كاد يؤدى إلى حرب بين بطون قريش بسبب التنافس على وضع الحجر فى مكانه.

بناء عبد الله بن الزبير:

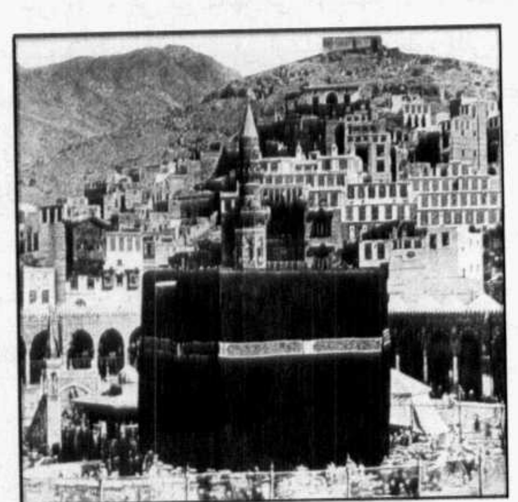
ظلت الكعبة على بنائها ذلك ولم يحدث فيها تغيير بعد ظهور الإسلام إلى أن حدث الصراع بين الأمويين وعبد الله بن الزبير على الحكم واحترقت الكعبة من جرائه فأمر عبد الله بن الزبير بهدمها وإعادة بنائها، وزاد فى ارتفاعها فجعله سبعة وعشرين ذراعا وأدخل فيها حجر إسماعيل عليه السلام الذى كانت قريش قد أخرجته منها، يعنى أعادها إلى قواعد إبراهيم عليه السلام، واحتج لذلك بحديث عن النبى ﷺ سمعه من خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، حيث قال لها الرسول ﷺ: «لولا حدثان قومك بكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم، وأزيد فيها الحجر».

بناء الحجاج الثقفى:

بعد مقتل عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ - ٦٩٢م كتب الحجاج بن يوسف الثقفى الذى كان أمير الحجاز عندئذ إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يعلمه أن عبدالله بن الزبير قد أدخل فى الكعبة ما ليس منها، واستأذنه أن يردها إلى ما كانت عليه، فأذن له فهدمها وأعاد بناءها كما كانت وأخرج منها الحجر.



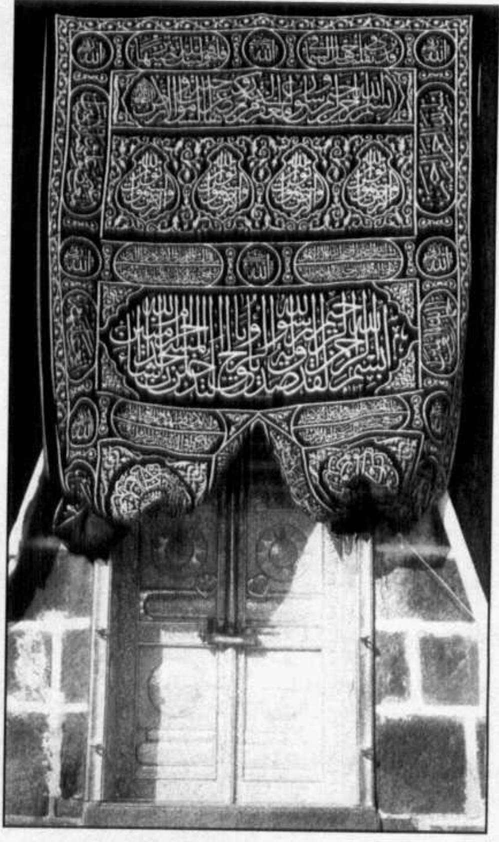

موكب الحجيج - لوحة من القرن الثامن عشر الميلادى


صورة قديمة للكعبة المشرفة فى مكة المكرمة

ويبــدو أن الدافع إلى ذلك كــان سياسيـا يعنى هدم ما بناه خصم الأمويين بدليل أن عـبد الملك بن مـروان ندم على ذلك، وقال: «وددت لو بقـيت على بناء ابن الزبيـر لما سـمع أنه استـدل بحـديث عائشة السابق ذكره.

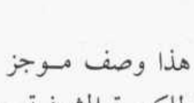
الكعبة بعد بناء الحجاج:

بقـيت الكعبة المـشرفـة بعـد بناء الحجاج على حالها، وبقى الحجر خارجها إلى الآن، ولم يتـعـرض أحـد من حكام المسلمين لتـغيير قـواعدها، احتفـاظا لها بهيبتـها حتى أن الخليـفة هارون الرشـيد (١٧٠-١٩٣هـ)/ (٧٨٦- ٨٠٨م) لما أراد أن يهدمهـا ويردها إلى بناء عبد الله بن الزبيـر، استشار فى ذلك الإمام مـالك بن أنس فنهاه عن ذلك وقال له: «نشدتك الله يا أمير المؤمنين ألا تجـعل بيت الله ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم أن يغيِّره إلا غيَّر، فـتذهب هيبته من قلوب الناس، فأخذ الخليفة بـرأى الإمام مالك فظلت الكعبة على حالها دون أن تمس، حـتى أنه لما تصدع جدارها الشرقى فى عـهد السلطان العثمـانى أحمد الأول ١٠٢٦هـ/ ١٦١٧م وأراد أن يهدمـها ويعيد بناءها، فـمنعه العلماء من ذلك وأشـاروا عليه بعمل نطاقـين - أى حزامين - من نـحاس، طليا بالذهب وشـدها بهما، وفى شـهر شعـبان سنة ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م نزل مطر غزير بمكة المكرمـة تسبب فى هدم الكعبـة، فأمر السلطان العثـمانى



باب الكعبة - من الذهب - صُنع بأمر السلطان حسن فى العصر المملوكى





مـراد الرابع بإعادة بنائهـا على قواعدها دون تغيير، وتم البناء فى رمضان سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م ولا تزال علـى حـالهـا إلى الآن.

هذا وصف مـوجز للغـاية للكعبـة المشرفـة - زادها الله تعظيـما وتشـريفـا - ذلك البناء الشـامـخ المهـيب، الضارب فى أعمـاق التاريخ، والذى يقع فى مركز الكرة الأرضية - كـما يؤكد ذلك علماء الجغرافيا والفلك، وتقع الكعـبة المشرفة حاليا فى وسط المسجد الحرام بمكـة المكرمة - تقريبا - ويبلغ ارتفاعها نحوا من خمـسة عشر مترا وطول جـداريها الشـرقى والغربى نحـوا من اثنى عشر مترا، والشمالى والجنوبى نحوا من عـشرة أمـتـار، وبابهـا مـصنوع من الذهب الخالص وكسوتها من الحرير الطبيعى المصبوغ باللون الأسود تزينه آيات من القرآن الكريم، مكتوبة بخيوط من الذهب.



إسماعيل عليه السلام والكعبة ومكة

كان إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما السلام - هو وأمه هاجر المواطنين الأولين فى مكة المكرمة، ذلك البلد الأمين الذى جعله الله تعالى حرما آمنا للناس جميعا، وشرفه بأن جعله أقدس وأطهر مكان على ظهر الأرض، لقد حظيت مكة المكرمـة بدعاء إبراهيم الخليل - عليه السلام- لها ولأهلها بالأمن والبـركة إلى يوم القيامـة، فقد قال المفسـرون إن إبراهيم عليه السلام بعـد ما هيأ لزوجه هاجر وابنهمـا إسماعيل المقام فى المكان وعزم على العودة إلى فلسطين وسـألته هاجر كيف

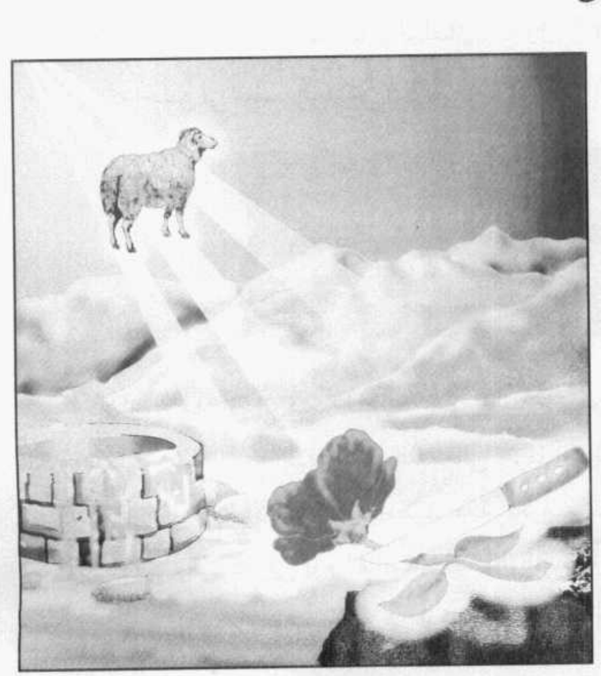


يتركهما وحدهما فى هذا المكان الموحش، فلما لم يرد عليها قالت له: آلله أمرك بها قال: نعـم، قالت: إذن لا يضيعنا عندئذ.. وقف إبراهيم عليـه السلام عند الثنية ودعـا ربه قائلا: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** (٣٧) ﴾ [إبراهيم].

ثم تكرر دعاؤه لمكة كثيـرا فى القرآن الكريم، فـقد جاء علـى لسانه فى سورة إبراهيم نفسها التى وردت فـيها الآية السابقة قوله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** (٣٥) ﴾ [إبراهيم]، ثم جاء على لسانه فى سورة البقرة ﴿ .. **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ** .. (١٢٦) ﴾.

لقد ارتبطت حيـاة إسماعيل عليه السلام بمكة المكرمـة بصفة خاصة، وبشبـه جزيرة العرب بصفة عـامة، وبعث نبيا للعرب وكـانت رسالته لمن سكن مكة من جرهم وغـيرها، ولأهل اليمن فهو نبى ورسول كما أخبر بذلك القرآن الكريم فى أكـثر من سورة، فقد جاء فى سورة مريم قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا** (٥٤) **وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا** (٥٥) ﴾ [مريم].

إسماعيل عليه السلام هو الذبيح:



يقص علينا القـرآن الكريم المحنـة أو الابتـلاء العظيـم الذى تعرض له إسـماعيل عليـه السلام، حـين أخبـره أبوه إبراهيم الخليل أن الله أمره فى المنام أن يذبحـه وكيف تقبل هو هذا الأمر الخـطير بالإيمان والصبـر كمـا أخبـرنا الله سبـحانه وتعـالى حيث يـقـول على لسـان إبراهيم وإسماعيل عليـهما السلام: ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ** (٩٩) **رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ** (١٠٠) **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ** (١٠١) **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ**



السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾ [الصافات].

هذه الآيات الكريمة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تفسير فى تأكيدها على قصة الذبح والفداء، وأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام سيما إذا تدبرنا مجىء بشارة إبراهيم بإسحاق بعد الانتهاء من قصة الذبح والفداء.

مما يدل دلالة قاطعة على أن إسحاق لم يكن قد وجد حين حدثت قصة الذبح والفداء، غير أن اليهود ـ كعادتهم فى قلب الحقائق وتحريف الكلم عن مواضعه ـ حاولوا أن يشيعوا أن الذبيح إسحاق لا إسماعيل مع أنهم يقرأون فى التوراة أن الله أمر إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه بكره ووحيده، ومن المسلَّم به أن إسماعيل هو بكْر إبراهيم بنص التوراة نفسها التى تقول نصوصها إن إبراهيم عندما أنجب إسماعيل كان فى السادسة والثمانين من عمره وعندما أنجب إسحاق كان قد بلغ المائة عام فمن إذن هو البكر الوحيد، أليس هو إسماعيل بنص التوراة؟.

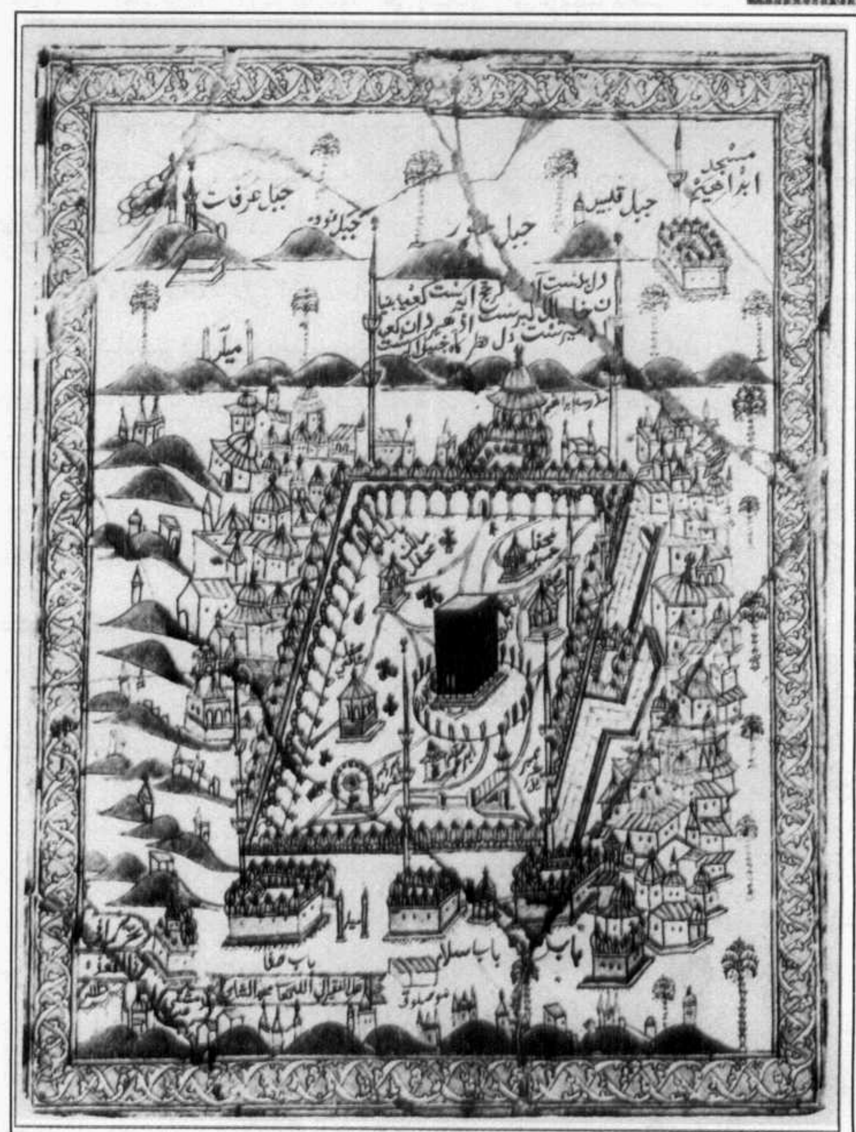
إسماعيل يشارك أباه فى بناء الكعبة:

جاء فى كتب التفسير عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)** ﴾ [البقرة].

أن إبراهيم عليه السلام قال لابنه إسماعيل عليه السلام: يا إسماعيل إن ربك عز وجل أمرنى أن أبنى له بيتا، فقال: أطع ربك عز وجل، قال: إنه أمرنى أن تعيننى عليه، قال: إذن أفعل.. فجعل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿ ...**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)** ﴾ [البقرة] فلما ارتفع البناء احتاج إبراهيم إلى حجر يرتفع عليه فجاءه إسماعيل بحجر فقام عليه، فذلك هو مقام إبراهيم الذى كان ملتصقا بالبناء، وبعد الإسلام رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته أنه يعوق الناس فى الطواف حول الكعبة فأمر بإبعاده عنها فنقل إلى مكانه الذى هو فيه إلى الآن، ولما بلغ البناء المكان الذى وضع فيه الحجر الأسود طلب إبراهيم من ابنه إسماعيل أن يبحث له عن حجر أسود يكون مميزا عن حجارة البناء حتى يبدأ الناس منه



الطواف، فذهب يبحث فلم يجـد، فعاد فوجد أباه قـد وضع الحجر فى مكانه، فسأله يا أبت من جاءك بهذا الحـجر؟ قال جاء به من هو أنشط منك، ويروى أن جبريل عليه السـلام أتى به من السماء، وقد أجريت دراسات علمية عليـه فتبين أنه من نوع من الصخور لا يوجد مثلها على الأرض.



بلاطة خزفية من دمشق سنة ١١٣٩هـ/ ١٧١٦م - عمل محمد الشامى بصورة مدينة مكة



زواج إسماعيل من جرهم:

يقول المؤرخون إن إسماعيل عليه السلام تزوج أول مرة من امرأة من العماليق هى عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقى، ثم طلقها بناء على نصيحة أبيه وتزوج بعدها من بنت مضاض بن عمرو الجرهمى فولدت له اثنى عشر ولدا ذكرا هم آباء العرب العدنانية ـ التى يسميها المؤرخون العرب المستعربة ـ ثم كانت له ابنة اسمها نسمة زوجها لابن أخيه عيصو بن إسحاق.

عاش إسماعيل عليه السلام حياته فى مكة المكرمة وأدى رسالته لأهلها ولمن حولهم، وكان من الطبيعى أن يكون هو وأبناؤه المعنيين بأمر الكعبة المشرفة وكل ما يختص بها من سدانة وحجابة.. إلخ، ولما توفى عندما بلغ السابعة والثلاثين بعد المائة دفن بالحجر مع أمه هاجر التى كانت قد توفيت قبله.





قامت مكة المكرمة فى وادى الحجاز، وهو واد منبسط من أودية سلسلة جبال السراة التى تكاد تحيط به من كل جانب تقريبا وتتخلل هذه الجبال ثلاثة طرق، أحدها يصل مكة المكرمة باليمن، والثانى يصلها بالشام، والثالث يصلها بجدة على البحر الأحمر إلى الغرب منها.

وتقع مكة تقريبا فى منتصف طريق القوافل الذى يربط اليمن بالشام، وقد كانت محلة - استراحة - لتلك القوافل قبل أن يأتى إليها إبراهيم عليه السلام بزوجه هاجر وابنه إسماعيل، ولكن منذ ذلك التاريخ ستصبح أعظم مركز دينى وأهم مركز تجارى فى كل شبه جزيرة العرب.

وقد سبقت الإشارة إلى أن إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر كانا أول من سكن بالمكان وأقاما فيه، فهما أساس عمرانها وتطورها.

كانت قبيلة جرهم اليمنية من القبائل التى تمر بهذا المكان للاستراحة فلما جاءت بعد استقرار إسماعيل وأمه وتفجر الماء من بئر زمزم، رأت من بعيد الطيور تدور وتحوم حول المكان فقالوا: إن هذه الطيور لتدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادى أن لا ماء فيه، فأرسلوا من يستطلع الأمر، فإذا بالطليعة تفاجأ بالماء فرجعوا وأخبروا قومهم بوجود الماء، فكانت فرحتهم عظيمة فأقبلوا فوجدوا هاجر عند بئر زمزم وكان من الطبيعى أن يسألوها عن وجود الماء فى مكان لا عهد لهم بالماء فيه، فأخبرتهم خبره فقالوا لها: (أتأذنين لنا أن ننزل عندك لنستفيد بالماء - قالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء قالوا: نعم) معنى ذلك أن هاجر قد سمحت لهم أن ينتفعوا بالماء فقط، دون أن يكون لهم حق فى تملكه وقد وافقوا هم على ذلك.

والحق أن هاجر كانت فى حاجة إلى من يؤنسها هى وابنها الصغير فى وحدتهم فرحبت بوجود هؤلاء العرب معها، وهم أرسلوا إلى أهليهم يخبرونهم بوجود الماء وبسماح هاجر لهم بالمقام معها هى وابنها، فجاءت أعداد كبيرة من جرهم وبدأوا يبنون المساكن، ومن هنا بدأت نشأة مكة المكرمة فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد على أرجح الأقوال.

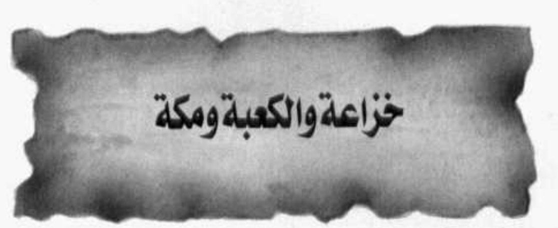
ولما كبر إسماعيل تزوج - كما سبقت الإشارة - من امرأة من العماليق الذين يبدو أنهم كانوا قريبين من المكان ثم طلقها وتزوج من بنت شيخ قبيلة جرهم؛ عمرو بن مضاض ومنها أنجب أبناءه الاثنى عشر، الذين هم آباء العرب العدنانيين - الذين يسميهم النسابة بالعرب المستعربة - ومن جرهم تعلم إسماعيل اللغة العربية أو بمعنى أدق نشأ وهو يتكلم اللغة العربية لأنهم عندما جاءوا إلى المكان واستأذنوا أمه هاجر فى المقام معها والانتفاع بالماء كان هو طفلا، فمن الطبيعى أن يشب وهو يعرف العربية.



كان أمر البيت الحرام ـ الكعبة ـ بيد إسـماعيل عليه السلام طوال حياته، ثم استمر أبناؤه يقومون بمهامه بعد وفاته، غير أن أخوالهم من أبناء جرهم أبدوا رغبـتهم فى مشاركـتهم القيام بشـؤون الكعبة، لما فى ذلك من الشـرف والمجد والكرامة، وخصوصا بعد أن ذاع أمـرها فى بلاد العرب وأخذوا يقصدونها من كل حدب وصـوب، وأضيف إلى الناحـية الروحيـة التى تمثلها الكعـبة ناحـية اقتصادية وأرباح طائلة أصبحت جرهم تجنيها من قوافل الحجيج فى الموسم، ويصور القرآن الكريم الأهميـة الدينية والأهمية الاقـتصادية لمكة المكرمة فى قـوله تعالى: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)** ﴾ [الحج]، يقول عبد الله بن عباس رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ** ﴾ منافع الدنيا والآخرة (أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات).

ويبدو أن أبناء قبيلة جرهم قـد أزاحوا أبناء أختهم ـ أبناء إسماعيل- شيئا فـشيئا عن شؤون الكعبـة، ثم أخرجـوهم من مكة كلها، وانفـردوا هم بإدارة شؤون الكعـبة الدينيـة، وشؤون مكة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية فتـرة طويلة من الزمن، غير أن أبناء جرهم لم يستطيعوا المحافظة على الأمن ثم طغوا وبغوا وعاثوا في الأرض فسـادا، ولم يعودوا صالحين لخدمة بيت الله الحرام، وتأمين الحجيج، وضـعف شأنهم، فداهمتـهم قبيلة يمنية أخـرى هى قبيلة خزاعـة، وبعد حروب وخطوب انتصرت خزاعة وطردت جرهـم من مكة لأن الجراهمة الذين كان يقع عليهم عبء تأمين الحجـيج وتوفيـر سبل الراحة لـهم وتنظيم شؤون الحج أهملوا هذا كله، بل أخـذوا يسطون على القوافل وينهبون أموال الناس، فكان لابد من أن يحل غيرهم محلهم، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا، وهكذا حلَّت خزاعة محل جرهم فى السيطرة على مكة، وبدأت بداية صحيحة.





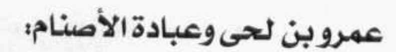
خزاعة والكعبة ومكة

لم يحدد الأخباريون الذين تناولوا تاريخ مكة المكرمة الفترة الزمنية التى سيطرت فيها جرهم على مقاليد الأمور فى مكة المكرمة، من تنظيم لشؤون الحج ورعاية حجاج بيت الله الحرام، وحفظ الأمن لهم، وكذلك تنظيم الأسواق التى كانت تقام حول مكة، مثل عكاظ وذى المجاز ومجنة، لم يحددوا المدة وإن كان السياق التاريخى يوحى بأنها كانت عدة مئآت من السنين.

ثم ضعف شأنهم وتراخت قبضتهم فجاءت خزاعة فأزاحتهم وأخذت مكانهم وإن كان ذلك لم يتم بسهولة بل بعد حروب انتصرت فيها خزاعة، التى هى بدورها قبيلة يمنية، هاجرت من اليمن واستقرت فى مكة وبدأت بداية صحيحة - كما سبقت الإشارة - فأقامت من بينها ملكا ملكته عليها، وهو عمرو بن لحى الخزاعى وربما تكون كلمة ملك مبالغا فيها فهو رئيس القبيلة وزعيمها، لكن لما كان اليمنيون يعرفون نظام الحكم الملكى وعرفت بلادهم قيام ممالك كثيرة على أرضها، مثل قتبان ومعين وسبأ وحمير، ولما كان الأمر كذلك فقد عدوا زعيمهم عمرو بن لحى ملكا لأن الكلمة كانت مألوفة لديهم.

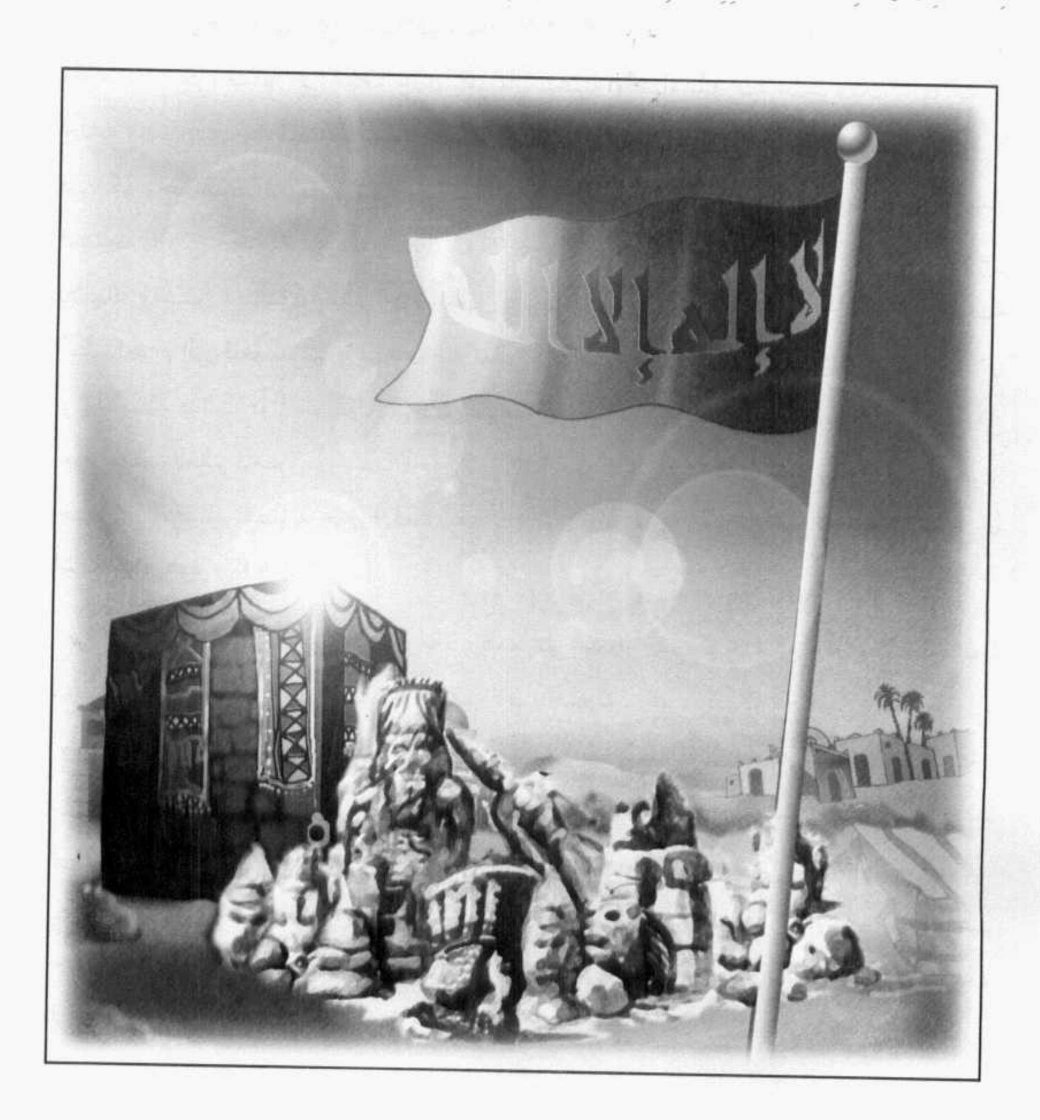
وعمرو بن لحى الخزاعى هو من أشهر الأسماء وأبرز الزعماء الذين عرفتهم مكة فى تاريخها قبل ظهور الإسلام، وقام بدور كبير فى تطوير مكة وعمل على تنشيط الحج بعد أن كان عدد الحجاج قد قل فى أواخر أيام جرهم بسبب اعتدائهم على قوافل الحجاج والتجار الذين يفدون إلى مكة، فعمل عمرو بن لحى على تأمين الحجاج وإقامة موائد الطعام لهم فى موسم الحج، وتوفير المياه لهم، وكانت تلك مهمة صعبة وشاقة، لأن جرهم لما غلبت على أمرها وأيقنت أنها ستخرج من مكة مكرهة مقهورة أمام قوة خزاعة استبد بها الغيظ فأقدمت على عمل خطير، فقد طمَّت بئر زمزم - أى ردمتها - فلم يعد يخرج منها ماء؛ لذلك كانت مهمة جلب الماء للحجاج من الآبار البعيدة مهمة شاقة، لكن عمرو بن لحى الخزاعى استطاع أن ينظم هذه العملية وأن يوفر لحجاج بيت الله حاجتهم من المياه لأنه كان يعرف أن عمران مكة وتطورها ورخاء أهلها يقوم على أمرين رئيسيين الحج والتجارة، فاهتم بالأمرين معا ونجح فى ذلك فشهدت مكة فى عهده فترة ازدهار ربما لم تعرفها من قبل.





عمرو بن لحى وعبادة الأصنام:

يكاد المؤرخون يجـمعون على أن عـمرو بن لحى الخزاعى زعيم خـزاعة وملكها والذى قام بدور كبيـر فى تطور مكة وازدهارها، يكادون يجمعون على أنه أول من أدخل عبادة الأصنام فى مكة المكرمة، لكن ما هو السبب فى ذلك؟ وكيف تحولت مكة التى عرفت أول ما عرفت رسالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهـما السلام، وهو الذى أثنى عليه ربـه سبحانه وتعـالى فى القرآن الكريم، حيث قال: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)** ﴾ [مريم]، فـأهله هم أهل مكة الذين سكنوها مـعه،



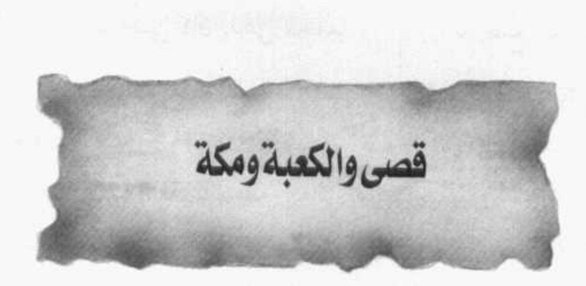


والذين تزوج منهم وأنجب أولاده مـن بنتهم، وهم قـبـيلة جـرهم فهم أخـوال أبنائه، فكيف تبدل الحال وتحولوا من الحنيفية ـ ديانة التوحيد ـ إلى الوثنية؟ يقول المؤرخون: إن العـهد قد بعد بالناس عن الحنيـفية، ونسوها وهذا مـعناه أن مدة حكم جرهم لمكة وسيطرتها على تقاليد الأمور فيها كانت مدة طويلة.

فلما أزاحتها خزاعة وحلت محلـها رأى زعيمها عمرو بن لحى أن يجىء العرب إلى مـكة من جديد لتنشيط تجارتها، ولـما كان يعرف تأثيـر الدين على الناس، ولما كان الناس قد نسوا دين التوحيد الذى جاءهم به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فقد اخترع لهم عمـرو بن لحى دينا جديدا، ويذهب المؤرخون إلى أن الذى أوحى إليه بهذه الفكرة أنه كـان فى رحلة عادية من رحـلاتهم التجـارية إلى الشام فـرأى الناس هناك يعبـدون الأصنام، فأعجبـته الفكرة فنقلها إلى مكة، وكان يأمر بأن تنحت الأصنام بأيد فنية مـاهرة يكون لها جاذبية تجذب الناس إليهـا، وكان على رأس هذه الأصنام هبل كبيرها، ومـن هنا بدأت تنتشر الأصنام لا فى مكة وحـدها بل فى سائر شـبه جزيـرة العرب، أما مكة المـكرمة فكان نصـيبهـا من الأصنام النصيب الأوفى، حتى يروى المؤرخـون أنه كان حول الكعبة المشرفة عنـد ظهور الإسلام نحوا من ثلاثمائة وسـتين صنمـا، وهكذا حول الجهل والجـهالة أول بيت وضع للناس فى الأرض الكعـبة البيت الحرام إلى قلعة للوثنية، ثم أذن الله تعالى أن يختم رسالاته بمحمد بن عبد الله ﷺ فأشرق نور الإسلام فدالت دولة الوثنية ورسخت عقيـدة التوحيد من جديد، فى ربوع بلاد العرب بل فى ربوع معظم العالم المعمور، وعندما دخل النبى ﷺ مكة فاتحا فى رمضان من العام الثامن الهجرى حطم كل الأصنام المنصوبة حول الكعبة وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** (٨١)﴾ [الإسراء].

ظلت خزاعة تلى أمر مكة المكرمة، وتقوم على سدانة البيت ـ خدمته ـ وتعشر التجارة المارة بها ـ أى تأخذ رسوم المرور، وهى ما يعرف الآن بالجمارك ـ ظلت كذلك نحوا من خمسة قرون، ثم ضعف شأنها ودارت عليها دورة الزمن، وعملت فيـها سنة الله فى خلقه عملها الذى لا يتغير ولا يتبدل، فكان لهـا أن تخلى المكان لقوة أخرى صاعدة، تستطيع أن تسـهم أو تقوم بدور جديد فى النهوض بمكة، وهذه القوة الفتية الجديدة لم تكن غريبة عن مكة فهم من سلالة أول من سكنها وعمرها. وهم قبيلة قريش التى ينتهى نسبهـا إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وكان الزعيم الجديد الذى قـدر له أن يقوم بدور كبيـر فى تاريخ مكة المكرمة هو قصى بن كلاب بـن مرة الجد الرابع للنبى محمد ﷺ.





قصى والكعبة ومكة

قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب، يتسلسل نسبه إلى أن يصل إلى عدنان ومن ثم إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقصى اسمه زيد وإنما سمى قصيا لأنه نشأ بعيدا عن قبيلته؛ فقد توفى أبوه وهو طفل صغير فتزوجت أمه واسمها فاطمة بنت سعيد من رجل من بنى عذرة اسمه ربيعة بن حرام، وأخذته معها إلى ديار زوجها فى بنى عذرة - قريبا من تبوك - ولما كبر وعرف من أمه أصله وعشيرته رجع إلى قومه، فنزل بمكة، وقدر له أن يقوم بدور فى تاريخ مكة ربما لم يتسن لأحد قبله فعندما عاد إلى مكة كانت زعامة خزاعة قد آلت إلى حليل بن جشية الخزاعى وقد لمس حليل فى قصى أمارات الزعامة من قوة الشخصية والقدرة على القيادة والتجميع، إضافة إلى الكرم والمروءة والنجدة، من أجل كل ذلك لم يتردد فى تزويج ابنته حبّى من قصى حين خطبها، وقد أنجب منها أبناءه الأربعة عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد، الذى كان يقال له أحيانا عبد قصى.

وبعد وفاة حليل بن جشية الخزاعى لم يخلفه من ولده ولا من قومه خزاعة من تتوافر فيه مواصفات الزعامة، وهنا سنحت الفرصة لقصى بن كلاب بن مرة ليعيد مجد أبناء إسماعيل ويتولى زعامة مكة، ويدبر شؤونها وشؤون البيت الحرام.

ولم ينس قصى أنه سليل الشرف والمجد وصريح ولد إسماعيل وأن أجداده السابقين قد نحتهم جرهم قسرا عن مكة حتى اضطرتهم إلى الخروج منها والعيش فى شعابها قرونا طويلة حتى جاء قصى وجمع شملهم من جديد واستعاد مجد آبائه وأجداده، ويبدو أن الأمر لم يكن سهلا وأن قريشا وحدها لم تكن قادرة على إخراج خزاعة من مكة؛ لذلك يروى المؤرخون أن قصيا استعان بأخيه لأمه وهو رزاح بن ربيعة بن حرام العذرى فأعانه وجاءه ومعه قومه من بنى عذرة من قضاعة ووصلوا مكة ونصروه، وغلبت خزاعة على أمرها وزال ملكها عن مكة، وصار الأمر إلى قصى زعيم قريش.

ولفظة قريش التى أصبحت علما على تلك القبيلة اختلف العلماء فى تفسيرها كثيرا وأرجح الآراء أنها اسم ثان لفهر بن مالك بن إلياس بن النضر، ففهر هو قريش وقبله كانوا يدعون بنى كنانة، والرأى الراجح الثانى أن قريشا لفظة معناها التجميع؛ ولذلك سمى قصى مجمعا وقد قال أحد شعرائهم:



أبونا قصى كان يدعى مجمعًا به جمَّع الله القبائل من فهر

فيظهر من هذا البيت أن قصيا هو أول من جمع قبائل مُضر ووحّدها وقد جاءت الكلمة فى القرآن الكريم فى سـورة الإيلاف علما على تلك القبيلة، فى معرض امتنان الله سـبحانه وتعالى عليهم بتسهيل أمـر تجارتهم، التى هى عماد حياتهم، وجعلهم يعيشون فى بلد آمن، قال تعالى: ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)** ﴾ [قريش]، ويروى عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصـارية أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويحكم يا مـعشر قريش، اعبدوا رب هذا البـيت الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف».

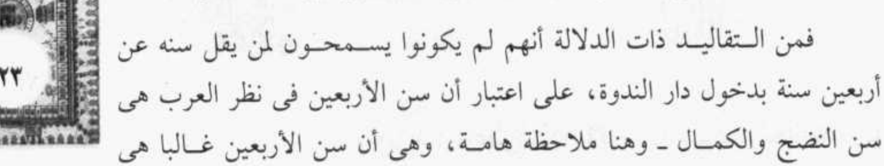
كان ذلك العـمل الكبير الذى قـام به قصى بن كلاب بن مـرة والدور العظيم الذى أداه فى تاريخ مكة من القوة والذيوع بحـيث أطلق الناس عليه لقب وصف الملك، وقال المـؤرخون: كان قصى أول ولد كعب بن لؤى أصاب ملكا وأطاعه قومه، اعتـرافا بفضله عليهم فهو الذى جمعهم من شعاب مكة ومكَّن لهم فيها وجعل لهم كيانا هائلا.

وكانوا لا يعقدون أمرا إلا فى داره ولا يتم عقد زواج إلا فى داره، فكان أمره فيهم كالدين المتبع.



كثرت مـهمات قصى وتشعـبت مسئوليـاته وكان شأنه شأن مؤسـسى الدول الذين يتحلون بالنظرة المستقبلية والقـدرة الفائقة على العمل - إضافة إلى صفاته الحميدة الـكثيرة التى أشرنا إليها فيما سبق. صحيح ليس من الدقة أن نقول إن قـصيا قد أنشأ فى مكة دولة بالمعنى المتعارف عليه، وإنما يمكن القول أنه خطا خطـوات تنظيمية على طريق إنـشاء الدولة، ولعل ما قام به قـصى كان مقدمة وإرهاصـا للنظام الجديد والدولة الإسلامية العملاقـة التى سيؤسسها حفيـده، خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ﷺ.

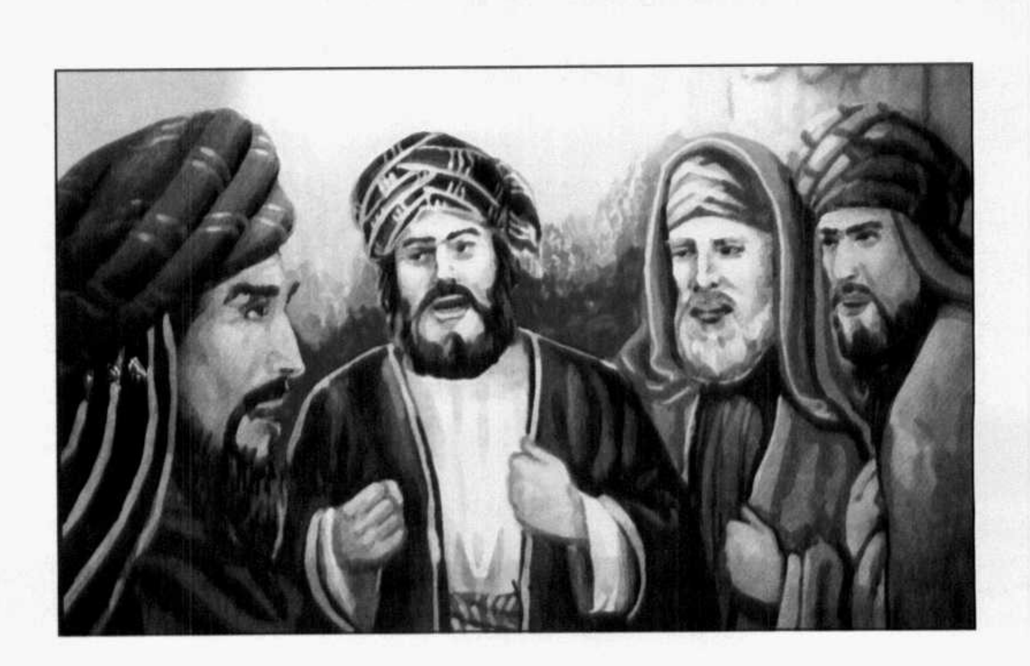
كان لابد لقصى وقد اتسع نـطاق عمله وعظمت مسئولياته أن يتخـذ مكانا يكون عاما لكل القبيلة يـليق بوضعها الجديد، تناقـش فيه كل أمورها فأنشـأ دار الندوة - التى ذاع صيتهـا فى شبه جزيرة العرب، فـدار الندوة هى مكان المشورة وإبداء الرأى فى أمور الحرب والسلم، وكـما كانت



دار مشورة فهى دار حكومة أيضـا، ففيها يجتمع أعيان ووجـهاء القبيلة برئاسة قصى للتشاور فى الأمور والبت فيـها، وقد ذكر المؤرخون أنه كانت لهذه الدار تقاليد وأعراف لا تقل دقة عن تقاليد المجالس النيابية فى الوقت الحاضر.

فمن الـتقاليـد ذات الدلالة أنهم لم يكونوا يسـمحـون لمن يقل سنه عن أربعين سنة بدخول دار الندوة، على اعتبار أن سن الأربعين فى نظر العرب هى سن النضج والكمـال ـ وهنا ملاحظة هامـة، وهى أن سن الأربعين غـالبا هى السن التى كان يبعث فيها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام ـ ومع أن هذا التقليد كان مرعيا بشكل صارم، إلا أنه لم يكن جـامدا بل كانت لديهم مـرونة كبيرة، بحـيث إذا وجدوا فى رجل صغير السن جودة فى الرأى، وحدة فى الذكاء سمـحوا له بالاشتراك فى المناقشات، وقالوا دخلها عمرو بن هشام - أبو جهل - وهو ابن ثلاثين عاما لجودة رأيه، ودخله غيره للسبب نفسه.

ظلت دار الندوة تؤدى دورها فى تاريخ مكة حـتى ظهور الإسلام، وكان أخطر قـرار اتخذ فيها فى تاريخها كله هو قرارهم بقـتل النبى ﷺ وقد أخبر بذلك وأمر بالهجرة إلى المدينة المنورة، وتشير إلى ذلك الآية الكريمة ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** (٣٠) ﴾ [الأنفال]، ظلت دار الندوة بيد بنى عـبد الدار بن قصى حتى بعد ظهـور الإسلام، ثم باعوها لمعـاوية بن أبى سفـيان وهو خليفـة فجعلهـا دار الإمارة فى مكة المكرمة، ثم هدمت بعد ذلك وأدخلت فى الحرم المكى.







لما كان البيت الحرام هو الذى أعطى مكة المكرمة قدسيتها ومكانتها، ولما كان العرب يقصدون هذا البيت المحرم للحج من كل فج عميق، فكان على من يلى أمر هذا البيت أن يوليه كل عناية ورعاية، وأن يسهل للحجاج أمر الوصول إليه والإقامة عنده، وأن يضمن لهم الأمن ويوفر لهم الماء والطعام لمن لم يكن معه طعام، وخصوصا أن العرب لم يكونوا يأتون إلى البيت الحرام حاجين فقط، وإنما كانوا يأتون إليه حاجين ومتاجرين.

ولم يغب عن فطنة قصى أن العناية بكل تلك الأمور يجعل أعداد الحجاج فى تزايد مستمر، وهذا فيه منافع كثيرة لأهل مكة؛ لذلك نظم تلك الأمور وجعل لها أسماء محددة ربما لم تكن معروفة من قبل مثل:

١- السّدانة:

وهى رعاية الكعبة المشرفة وخدمتها ونظافتها وإعدادها للزائرين، وإذا كان قصى لم يستحدث السدانة فهى موجودة منذ بناء الكعبة لكنه أعطاها من العناية والرعاية والاهتمام بحيث كانت كأنها لم تنشأ إلا فى عهده.

٢- السقاية:

وهى توفير المياه لحجاج بيت الله الحرام، وتلك مهمة ضرورية وشاقة فى الوقت نفسه، سيما بعد أن طمرت بئر زمزم ـ ردمتها جرهم حين غلبت على أمرها أمام خزاعة لتحرمها من الانتفاع بها ـ لذلك كان طلب كميات من المياه من الآبار البعيدة وبناء الأحواض لها، كان ذلك كله أمرا صعبا ومكلفا،لكن قصيا قام بذلك، وبطبيعة الحال بمعونة قبيلته ولو كان وحده لما استطاع أن يفعل شيئا ولكنه لما كان زعيما كبيرا فقد استطاع أن يجند كل طاقات القبيلة وإمكانياتها لتحقيق أهدافه، التى كانت أهدافهم أيضا.

ولعل قصيا هو أول من جعل لتوفير المياه للحجاج وظيفة خاصة سماها السقاية، فقد كانت خزاعة قبله تهتم بأمر توفير المياه للحجاج لكنهم لم يستخدموا اسم السقاية.



٣- الرفادة:

من الوظائف الهامة التى أنشأها قصى بن كلاب بن مرة، والتى كان لها أعظم الأثر فى كثرة الإقبال على مكة والحج إلى بيت الله الحرام، والرفادة هى إطعام حجاج بيت الله الحرام فى موسم الحج ـ سيما الفقراء منهم ـ «وكان هذا العمل من قصى ينطوى على حكمة سياسية كبيرة، فإن إمداد الحجاج بالطعام يدعو إلى الإقبال على القدوم إلى مكة، وخصوصا إذا قدرنا بُعْد الشقة وصعوبة حمل المؤن والزاد مع السفر فى الصحراء مسافات طويلة، كما أن البادية كانت فقيرة، وكان إطعام الطعام فضيلة من أكبر الفضائل التى يمتدح بها العرب، وينال صاحبها الاحترام والمنزلة الرفيعة، كما أن المؤاكلة تعد عقد جوار عند العرب، فإذا أطعمت قريش القبائل القادمة إلى مكة فى موسم الحج فإنها تنال بذلك احتراما ومنزلة سامية فى نظر القبائل وكأنها تعاقدت معها برابطة الجوار والأمن نتيجة لهذا كله، وبذلك يصبح فى إمكان قريش أن تسير آمنة فى أراضى هذه القبائل على نفسها وتجارتها.

وقد تعاونت بيوت قريش كلها فى حمل هذا العبء، لأنه لم يكن فى مقدور قصى أن يقوم وحده بإطعام الأعداد الهائلة من الحجاج.

هذه الوظائف الثلاث ـ السدانة والسقاية والرفادة ـ خاصة ببيت الله الحرام، وكانت تضفى على من يقوم بها شرفا وذكرا ومنزلة بين العرب، وإلى جانبها كانت هناك وظائف إدارية وسياسية وعسكرية إن صح هذا التعبير، منها:

١- اللواء:

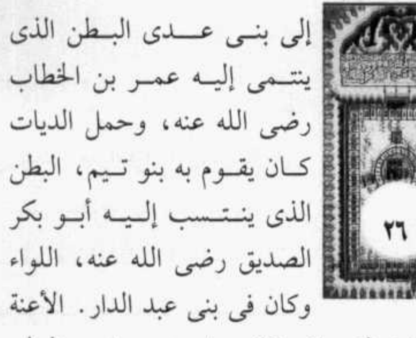
وهو راية الحرب، وكان قصى يسلمها لمن يتولى القيادة العامة عند الحرب.

٢- القيادة:

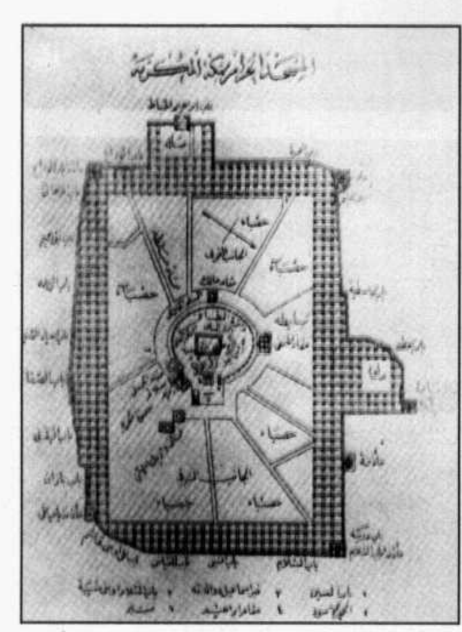
وهى قيادة رجال القبيلة فى الحرب، فمن يتولى هذه القيادة كان يستلمها من قصى، وفى دار الندوة.

هذه الوظائف كلها الدينية المتعلقة بالكعبة والدنيوية المتعلقة بالحرب وغيرها من أمور الدنيا كانت بيد قصى، ولما كان قصى يدرك روح المنافسة بين البطون القرشية وأن هذه البطون لا يرضيها أن يستحوذ هو على كل شرف ومجد فى مكة، فقد عمل على إرضائها لتسود روح الوئام بينهم، وذلك باستحداث وظائف أخرى أسند كل وظيفة منها إلى بطن من بطون قريش، فرضيت وقرت عيونها؛ فعلى سبيل المثال كانت هناك وظيفة السفارة بين قريش وغيرها من القبائل، وقد أسندت





إلى بنى عدى البطن الذى ينتمى إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وحمل الديات كان يقوم به بنو تيم، البطن الذى ينتسب إليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه، اللواء وكان فى بنى عبد الدار. الأعنة وهى قيادة الفرسان وكانت فى بنى مخزوم البطن الذى ينتمى إليه خالد بن الوليد رضى الله عنه، والحكومة بين القبائل كانت من نصيب بنى سهم البطن الذى ينتمى إليه عمرو بن العاص رضى الله عنه.



خريطة من سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م
تصور المسجد الحرام بمكة المكرمة



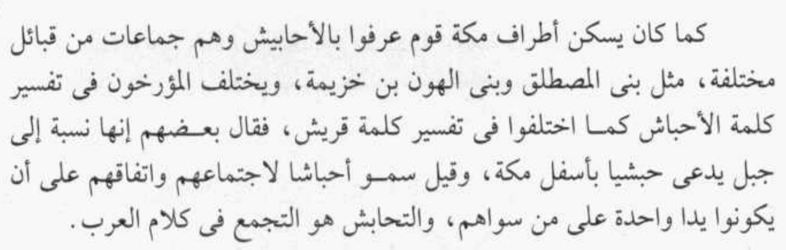
مكة بعد قصى

يكاد المؤرخون يجمعون على أن قصيا قد قام بدور كبير فى تاريخ مكة وتطورها ووضع لها كثيرا من النظم والتقاليد التى ظلت سارية حتى ظهور الإسلام، ومن أهم مآثره على أهلها أنه غرس فيهم روح الوئام والبعد عن الشقاق والنزاع وحل كل مشكلاتهم سواء فيما بينهم أو فيما بينهم وبين غيرهم من القبائل بالتفاهم والحوار، والبعد عن الصدام والحرب ما استطاعوا لذلك سبيلا، وهذا أمر سنلاحظه بوضوح فى تاريخ مكة، فكلما نشب خلاف أو نزاع على أمر من الأمور وتداعى الناس إلى سل السيوف والحرب سرعان ما تظهر الأصوات التى تدعو إلى السلام وحقن الدماء فتتراجع صيحات الحرب وتخبو الدعوة إليها ويسود السلام والوئام بين بطون قريش.

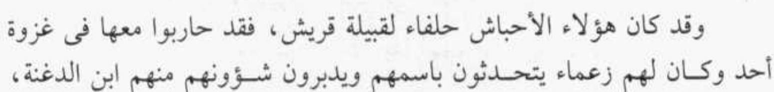
وإذا كان المؤرخون مجمعين على الدور الذى قام به قصى بن كلاب بن مرة فى تاريخ مكة، فهم مجمعون كذلك على أنه المؤسس الحقيقى لكيان قبيلة قريش فهو الذى جمعها من شعاب مكة ـ حتى سمى مجمِّعا ـ وأسكنها فى البلد الأمين.

وإن كان قد ظل خارج مكة قسم منها كانوا يسمون قريش الظواهر، وهم الذين بقوا خارج مكة، وكانوا أقرب إلى البداوة وكانوا يفخرون على قريش البطاح، الذين سكنوا مكة بأنهم أهل قتال، وأنهم يدافعون عنهم وعن البيت.





كما كان يسكن أطراف مكة قوم عرفوا بالأحابيش وهم جماعات من قبائل مختلفة، مثل بنى المصطلق وبنى الهون بن خزيمة، ويختلف المؤرخون فى تفسير كلمة الأحباش كما اختلفوا فى تفسير كلمة قريش، فقال بعضهم إنها نسبة إلى جبل يدعى حبشيا بأسفل مكة، وقيل سمو أحباشا لاجتماعهم واتفاقهم على أن يكونوا يدا واحدة على من سواهم، والتحابش هو التجمع فى كلام العرب.



وقد كان هؤلاء الأحباش حلفاء لقبيلة قريش، فقد حاربوا معها فى غزوة أحد وكان لهم زعماء يتحدثون باسمهم ويدبرون شؤونهم منهم ابن الدغنة، الذى أجار أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما رآه عازما على الهجرة إلى الحبشة، ومنهم الحليس بن علقمة الذى أوفدته قريش إلى رسول الله ﷺ فى الحديبية، يستطلع خبره، فلما رأى الهدى فى قلائده علم أن الرسول ﷺ ما جاء مكة محاربا، بل جاء معتمرا يسوق الهدى أمامه فلما رجع إلى قريش وأخبرهم بذلك فقالوا له: اجلس يا حليس إنما أنت رجل أعرابى لا علم لك، فأغضبه ذلك القول وقال لهم: «يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أتصدون عن بيت الله من جاءه معظما له، والذى نفس الحليس بيده لتخلُّن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مه - يعنى اسكت - كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

على أية حال ترك قصى مكة كيانا واحدا محددا لها حلفاء يهبّون للدفاع عنها. ولا يذكر التاريخ تاريخا محددا لمولد قصى بن كلاب بن مرة وإن كان بعض الباحثين يستنبط من دراسة تاريخه أنه ولد فى مطلع القرن الخامس الميلادى، وأن وفاته كانت قرب نهايته ولما مات دفن بالحجون وهو جبل بأعلى مكة كان أهلها يدفنون موتاهم عنده، وكان قبره مزارا لأهل مكة، تقديرا واحتراما له واعترافا بفضله عليهم.

أولاد قصى:

أنجب قصى بن كلاب بن مرة أربعة أولاد ذكور، هم عبد الدار وعبد العزى وعبد مناف وعبد قصى، ويروى المؤرخون أن عبد الدار كان أكبرهم سنا، ولكنه كان أخملهم ذكرا؛ لذلك أراد أبوه أن يرفع شأنه ويعلى ذكره بين إخوته وكذلك بين أهل مكة فأسند إليه كل الوظائف التى



مفتاح الكعبة من أمانات الرسول ﷺ بمتحف توب كابى - اسطنبول



كانت بيـده، وهى رئاسة دار الندوة وسـدانة الكعبة والرفـادة والسقـاية وكذلك حمل اللواء، وقد أذعن اخوته الثـلاثة لمشيئة أبيهم، واستمر الأمـر كله بيد عبد الدار، فلما ماتوا جميعـا نشب خلاف بين أبنائهم حيث نفس بعضهم على بنى عبد الـدار أن يحوزوا هذا الشرف كله، وكان الذى فـعل ذلك وتزعم الأمر بنو عـبد مناف بن قـصى، وتكهرب الجـو فى مكة لأن بنى عـبد الدار لم يفـرطوا بسهولة فى تراث أبيهم، واعتبروا ذلك حقا لهم، لا يفرطون فيه.

وانقسمت بطون قـريش إلى فريقين؛ فريق ناصر بنى عبـد مناف وهم بنو أسد وبنو زهرة، وبنو تيم وبنو الحارث، وعقدوا معهم حلفا سمى حلف المطيبين ـ لأنهم غمسوا أيديهم فى الطيب عند التحالف، أما بنو عبد الدار بن قصـى فقد ناصـرهم بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبـنو عـدى وسمى هؤلاء بالأحلاف.

وكادت تنشب بين الحـيين حرب، ولكنهم تذكـروا وصايا قصى لهم فتـداعوا إلى الصلح، وبالفعل اتفقوا علـى أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة وتظل بـقية الوظائف وهى رئاسة دار الندوة واللواء والسدانة بيد بنى عبد الدار.

ظل الأمر هكذا وكل فريق يؤدى ما وكل إليه من مهام ومناصب إلى أن ظفر الإسلام فألغى النبى ﷺ بعد فـتح مكة كل المناصب عدا السدانة فـقد تركها لـبنى عبد الدار، والسقـاية والرفادة وبقيت فى يد عمـه العباس بن عبد المطلب رضـى الله عنه، وهنا لمسة وفاء أظهرها سيـد الأوفياء محمد بن عبد الله ﷺ، فعندما فـتحت مكة المكرمة طلب العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه من رسول الله ﷺ أن يجـعل له السدانة مع السقـاية والرفادة، ولكن النبى ﷺ نادى عثـمان بن طلحة وقـال له: «هاك مفتاحك يا عـثمان» فـأعطاه المفتاح وقال: «هذا يوم بر ووفـاء» ودعا لآل طلحة أن يظلوا حاملى مفتاح الكعبة إلى يوم القيامة فهو معهم إلى الآن.



ونحن بصدد الحديث عن الأحلاف وأن قريشا مهما حدث بينها من خلافات ومهما تداعت إلى الحرب فإن نزعة الحرب فيهـا لم تكن عندها أصيلة، ولم تدخل قريش حربا إلا مكرهة، كما حدث فى حرب الفجار، فقد دخلت هذه الحرب مناصرة لبنى كنانة لما بينهم من الحلف ضد قيس



عيـلان، وحدث قتال بين الفـريقين فى الشهـر الحرام؛ ولذلك سميـت حرب الفـجار، وقـد حاولت قـريش وضع حـد لهذه الحـرب وقد نجـحت فى ذلك وتحملت دية عشرين قتيلا دفعـتها لقيس عيلان، كل ذلك يدل على ميل قريش إلى السـلام، وهذه الحرب شـهدها رسـول الله ﷺ، وهو ابن عشـرين سنة، وشارك فـيهـا وقال: «كنت أنبل على أعـمامى» أى أرد عنهم نبـل عدوهم إذا رموهم بها.

أقول ونحن بصـدد الحديث عن هذا كله يحسـن بنا أن نتحدث عن حلف آخـر كان عظيم الأهمية فى تاريخ مكة المكرمة، وقد أشاد به رسول الله ﷺ، ذلكم هو حلف الفضول، الذى يدل عقـده على أن أهل مكة لم يكونوا حريصين علـى وحدة قبائلهم فـحسب، وإنما كانوا حـريصين بالقدر نفسه على إقـرار الأمن لأهل مكة جميعا وللقادمين إليها، سـواء للحج أو للتجارة ـ وكانوا كثيـرين ـ فلم يسمحوا لأحد أن يظلم فـيها أحدا، أو يعتـدى عليه، والسبب المباشـر لعقد حلف الفضول أن العاص بن وائل السهمى اشترى بضاعة من رجل من اليمن قدم مكة تاجرا، ولم يعطه ثمنها فقال الرجل شعرا يستثير به حمية قريش ونخوتها لإنصافه، قال:

يا آل فِـهر لمظـلـوم بضـاعـتُه   ببطـن مكَّة نائي الدار والنَّفرِ

ومُحرمٌ أشعَثٌ لم ْيَقضِ عُمْرته   يا للرجال وبين الحِجرْ والحَجَرِ

إن الحـرام لمن تَمَّـتْ كرامته   ولا حَـرامَ لثوب الفاجِرِ الغدرِ

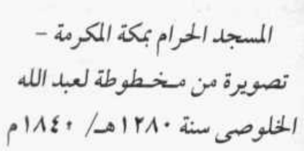
فلما سمعت قريش ذلك تداعت إلى عـقد الحلف الذى تكوَّن من بنى هاشم بن عبد مناف وبنى المطلب بن عـبد مناف وبنى أسـد بن عـبد العـزى وبنى زهرة بن كلاب وبنى تيم بـن مرة، اجتـمع هؤلاء جميـعا فى دار عبـد الله بن جدعان زعـيم بنى تيم وتعاقـدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما، من أهلهـا أو من غيرهم ممن يدخلها من سـائر الناس، إلا قاموا معـه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد إليه مظلمـته فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقـد حضره الرسول ﷺ قبل بعثته، وقال عنه: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت».

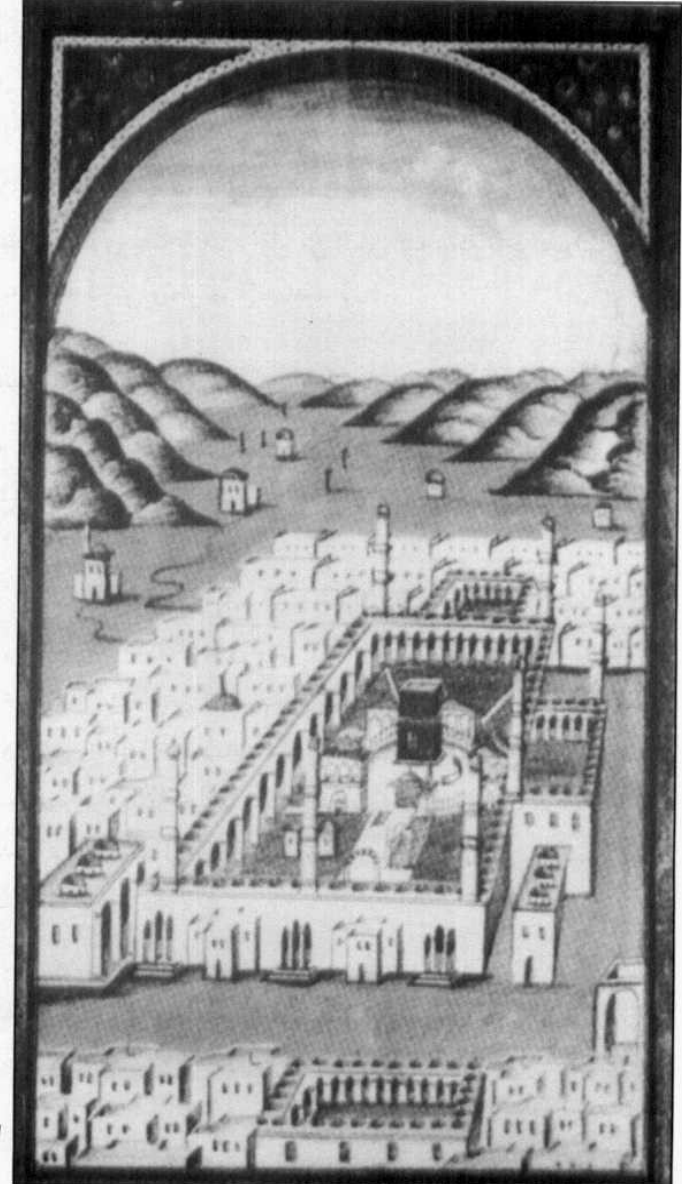
هذا هو حلف الفضول الذى يعد خطوة هامة فى تاريخ مكة المـكرمة وتطورها، فهو ما قام إلا لمنع الظلم ونشر العدل وإحقاق الحق، ولعله أول حلف أو تجمع للدفاع عن حقوق الإنسان فى التاريخ البشرى.



هاشم بن عبد مناف ودوره فى ازدهار مكة

حين تنازع بنو عبد مناف مع بنى عمـهم عبد الدار بن قصى أمر المناصب التى كـانوا يتـولونهـا بعـد أبيـهم، وطالبـوا بنصيبـهم فيـهـا، وكـادت تنشب بين البيـتـين حـرب لولا تدخل عـقـلاء مكـة ودعـوتهم إلى الصـلح، وقـد تم الـصلـح وكان المتحدث باسم أبناء عبد مناف والمتـولـى أمـرهم هـو أكبرهم عبد شـمس بن عبد منـاف، لكن لما تم الصـلح على أن يأخذ بنو عـبد مناف بن قصـى الرفادة والسـقاية، تركهـا عبـد شمس بن عـبد مناف لأخيـه الأصـغـر منه هاشم؛ لأن عبـد شمس كان كثير الأسـفار من ناحية ومن ناحيـة ثانية فإن هاشمـا كان واسع الثراء فكان ألـيق لتولى هذه المـناصب التـى تتطـلب





المسجد الحرام بمكة المكرمة - تصويرة من مـخـطوطة لعبد الله الخلوصى سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٤٠م



نفقات كثيرة، وقد نهض هاشم بهذا العبء، وكان إلى ثرائه يطلب مساعدة القبيلة لضخامة المسئولية، يقول ابن إسحاق: فولى الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف وذلك أن عبد شمس كان رجلا سفَّارا قَلَّما يقيم بمكة، وكان مُقِلا ذا ولد، وكان هاشم موسرا فكان إذا حضر الحج قام فى قريش فقال: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته، وهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاما أيامهم هذه التى لا بد لهم من الإقامة بها، فإنه والله لو كان مالى يسع لذلك ما كلفتكموه، فيخرجون لذلك خرجا من أموالهم كل امرئ بقدر ما عنده فيصنع به للحجاج طعاما حتى يصدروا منها.

لم يقتصر دور هاشم بن عبد مناف على القيام بالرفادة والسقاية، وتوفير الأمن والراحة لحجاج بيت الله الحرام، وهذا شرف عظيم لا شك، ولكن بالإضافة إلى هذا عمل هاشم وإخوته على ازدهار مكة وتقدمها، وبصفة خاصة فى ميدان التجارة. ويقول المؤرخون إن هاشم بن عبد مناف هو الذى نظم تجارة قريش الخارجية هو وإخوته، وقد عرف هذا النظام برحلتى الشتاء والصيف اللتين أشارت إليهما سورة الإيلاف، أو سورة قريش، وقد خرج هاشم بن عبد مناف وإخوته عبد شمس ونوفل والمطلب بتجارة قريش من النطاق المحلى إلى النطاق الخارجى، فذهبت قوافل مكة التجارية إلى اليمن والعراق والشام، وتطلب ذلك إقامة علاقات مع المسئولين فى هذه البلاد، وعقد معاهدات معهم لضمان السلامة والأمن لتجارة قريش وأموالها، فقد عقد هاشم وإخوته معاهدات مع الروم والفرس والنجاشى ملك الحبشة وملوك وحكام اليمن، كما أن مرور القوافل المحملة بأنواع التجارات على القبائل القاطنة على طريقها تطلَّب إقامة علاقات طيبة تقوم على الود والصداقة مع هذه القبائل، مثل خزاعة وضمرة وجهينة... إلخ، وكان من الطبيعى أن تستفيد هذه القبائل من تجارة قريش، حيث كان زعماؤها يشتركون فى القوافل القرشية وكانوا يوفرون لها الحماية أثناء مرورها بأراضيهم، وبهذا اتسعت تجارة قريش وعظمت ثروتها وأصبح هاشم بن عبد مناف زعيما لمكة كلها.



كان هاشم بن عبد مناف يتمتع بخصال الزعامة ومواصفات القيادة ولذلك سلم له إخوته وغيرهم من زعماء وشيوخ بطون قريش بزعامة مكة طوال حياته؛ ولذلك تركت وفاته المبكرة فراغا



لم يستطع أحد من إخوته ولا من غيرهم أن يملأه، بمعنى أنه لم يكن فى مقدور فرد واحد أن يقوم بما كان يقوم به، وقد ترتب على ذلك ظهور قوة جماعية هى ما أطلق عليه الملأ من قريش، وهو مجلس القبيلة المكون من زعمائها، وأتيحت الفرصة لظهور زعماء عديدين فى بطون قريش المختلفة مثل: الوليد بن المغيرة فى بنى مخزوم، وعبد الله بن جدعان فى بنى تيم، والعاص بن وائل السهمى فى بنى سهم، وحرب بن أمية فى بنى أمية. . وهكذا، وكان أبرز رجالات بنى هاشم عبد المطلب بن هاشم، جد النبى محمد ﷺ، ولهذه الصلة نخصه وحده بكلمة دون بقية زعماء مكة المعاصرين له، لأن الله تعالى شرفه باختيار خاتم أنبيائه ورسله من ذريته وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ.

عبد المطلب بن هاشم وحفر بئر زمزم:

سبق وأن ذكرنا أن أول ظهور لبئر زمزم قد ارتبط بوجود إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وأمه هاجر، وأن وجود الماء فى المكان الذى بنى فيه البيت الحرام كان هو الذى جذب قبائل جرهم للسكنى حوله، ومن هنا كانت نشأة مكة المكرمة، ثم إن قبائل جرهم لما غلبت على أمرها فى نهاية أيامها أمام خزاعة وأدركت أنها ستضطر للخروج من مكة عندئذ استبد بها الغيظ وطمت بئر زمزم ـ أى ردمتها ـ ومن ثم اختفى أهم عنصر لازم للحياة والأحياء وهو الماء؛ ولذلك اضطر أهل مكة للبحث عن مصادر للماء غير زمزم، وكان ذلك أمرا شاقا لبُعد الآبار الأخرى عن مكة، وكان أكثر مشقة لمن يتولى أمر سقاية الحجيج، تلك المهمة التى آلت إلى عبد المطلب بن هاشم بعد وفاة عمه المطلب بن عبد مناف، ويبدو أن الله تعالى قد أراد إكرام عبد المطلب بأن يريحه من مشقة البحث عن الماء وأن يجرى على يديه ماء زمزم من جديد، ولا شك أن ماء زمزم بخصائصه التى تحدثت عنها كتب السيرة والحديث وارتباطه بجد العرب العدنانيين، إسماعيل عليه السلام، لا شك أن ظهوره من جديد على يد عبد المطلب سيكون أمرا عظيما وبالفعل بعد أن أتم عبد المطلب الحفر وظهر الماء فرحت به مكة كلها.

وكتب السيرة تروى ما ملخصه أنه بينما عبد المطلب بن هاشم نائم فى حجر إسماعيل إذ أتاه هاتف فى منامه وأمره أن يحفر زمزم وحدد له مكانها، فلما صحا من نومه لم يتردد فى تنفيذ ما أمر به فى منامه فحمل معوله وأخذ معه ابنه الحارث الذى لم يكن له يومئذ ولد غيره، وأخذا فى الحفر فأثار عملهما عجب قريش وحيرتها، ولم يسلم عبد المطلب من بعض عبارات السخرية، ولكنه صمم على الاستمرار فى الحفر حتى ظهر الماء، وكان أهل مكة فى ذهول مما صنع عبد



المطلب وكان من الطبيعى أن يسعدوا بظهور ماء زمزم من جديد، وهذا العمل زاد من مكانة عبد المطلب الأدبية بين رجالات قريش، واعتبروا ما حدث مكرمة خصه الله بها حيث أعاد لهم حفر بئر زمزم، التى هى تراث جدهم إسماعيل عليه السلام، ومن ذلك الوقت بدا وكأن عبد المطلب هو أبرز شخصية فى مكة بل سيكون المتحدث باسمها، وسيظهر ذلك بوضوح عند غزو الأحباش لمكة المكرمة حيث كان هو الذى تولى مفاوضة أبرهة الأشرم نيابة عن أهل مكة.

ومنذ أعاد عبد المطلب حفر بئر زمزم لم ينقطع ماؤها إلى الآن، ويحرص جميع حجاج وزوار بيت الله الحرام على الشرب منه مرارا وعلى الوضوء بل الغسل منه، وكثيرون منهم يحملونه إلى بلادهم لما يعتقدون فيه من البركة، وأى بركة أعظم من أن تكون بداية ظهوره كانت على يد جبريل عليه السلام، تكريما لهاجر وابنها إسماعيل عليه السلام.



ارتبط بإعادة عبد المطلب بن هاشم حفر بئر زمزم قصة نذره أن يذبح ولدا من أولاده إذا بلغوا عشرة؛ ذلك أن عبد المطلب لقى من قريش عنتا وتعسفا وهو يحفر بئر زمزم، فهم لم يعاونوه ولم يتركوه وشأنه، بل قالوا له: «يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذٌّ لا ولد لك» حز ذلك فى نفس عبد المطلب وتألم لمعايرة قومه له بقلة الولد، حيث لم يكن له عندئذ إلا ابنه الحارث، ولو كان له أولاد كثيرون لمنعوه، ولما جرأت قريش على معايرته ومضايقته؛ لذلك نذر إن رزقه الله بعشرة من الأولاد لينحرنّ أحدهم عند الكعبة قربانا للآلهة، وتقص كتب السيرة أن أمنيته قد تحققت وتكامل عدد أولاده عشرة وهم: ١ - الحارث، وهو أكبرهم، ٢ - الزبير، ٣ - حجل، ٤ - ضرار، ٥ - المقوم، ٦ - عبد العزى وهو أبو لهب، ٧ - العباس، ٨ - حمزة، ٩ - أبو طالب، ١٠ - عبد الله، عندئذ عزم على الوفاء بنذره، وضرب القرعة على أولاده جميعا، فأيهم جاءت عليه ذبحه، فجاءت على عبد الله، وهمَّ عبد المطلب بذبح أحب أولاده إليه تقربا للآلهة ووفاء بنذره، لكن أهل مكة جميعا، وبصفة خاصة بنو مخزوم وهم أخوال عبد الله منعوه من ذلك وقالوا له: لا تجعل ذلك سُنّة فى العرب. . ولكن كيف السبيل وما هو المخرج من ذلك وهم يعرفون إصرار عبد المطلب على الوفاء، عندئذ اقترحوا عليه أن يذهبوا إلى عرافة وكانت



مشهورة بيثرب فى حل أمثال تلك المعضلات، وأن يعرضوا عليها الأمر، وبالفعل ذهبوا إليها فوجدوها فى خيبر، وعرضوا عليها الأمر فأشارت عليهم أن يعودوا إلى مكة وأن يقربوا عبد الله بن عبد المطلب وعشرة من الإبل - وهى مقدار دية الرجل عندهم - ثم يضربون عليها القداح كعادتهم فإن خرجت القداح على عبد الله فليزيدوا عشرة حتى ترضى الآلهة، فعادوا وفعلوا فأخذت القداح تشير إلى عبد الله فأخذوا يزيدون فى كل مرة عشرة، حتى بلغ العدد مائة، عندئذ خرجت القداح تشير إلى الإبل، ففرح الناس، وقالوا لعبد المطلب لقد رضيت الآلهة، غير أنه صمم على ضرب القداح ثلاث مرات تأكيدا للوفاء وفى كل مرة تشير إلى الإبل، عندئذ اطمأنت نفس عبد المطلب، ونحر الإبل المائة وأطعم الناس وترك ما بقى للطيور والسباع. وهكذا شاء الله عز وجل أن يكون هذا الفداء كرامة للنسمة المباركة، التى ستخرج من ظهر عبد الله بن عبد المطلب، وإرهاصا بين يدى المولود الذى لا يزال فى ضمير الغيب وهو سيد الخلق محمد بن عبد الله؛ الذى يروى أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» الأول إسماعيل والثانى عبد الله بن عبد المطلب.



فى نهاية الربع الأول من القرن السادس الميلادى قامت الحبشة بغزو اليمن بأمر الدول البيزنطية التى كان يهمها بسط سلطانها على المواقع الإستراتيجية فى بلاد العرب فى إطار التنافس المستمر بينها وبين الإمبراطورية الفارسية على السيطرة على الممرات والطرق التجارية، وقد نجح الأحباش فى احتلال اليمن لمدة نصف قرن من الزمان تقريبا من ٥٢٥ إلى ٥٧٥م، ثم استطاع سيف بن ذى يزن طرد الأحباش بمساعدة الفرس، الذين انتهزوا فرصة خروج الأحباش وحكموا هم اليمن حكما مباشرا بعد وفاة سيف بن ذى يزن، وظل الأمر كذلك إلى ظهور الإسلام حيث كانت اليمن أول جزء من شبه جزيرة العرب تضم إلى الدولة الإسلامية، حيث أسلم حاكمها الفارسى سنة ٧هـ، وأقره النبى ﷺ ملكا على حكم اليمن.



والذى يهمنا هنا هو محاولة الأحباش غزو مكة المكرمة، وهدم الكعبة المشرفة انتقاما من قريش التى عبث أحد أبنائها بالكنيسة التى كان الأحباش بنوها فى صنعاء ليحج الناس إليها وينصرفوا عن الكعبة التى كان يقصدها الحجاج من جميع أنحاء شبه جزيرة العرب، هذا هو السبب الظاهر للغزو الحبشى لمكة وهدم الكعبة، غير أن بعض المؤرخين يرى أن السبب أبعد من ذلك وهو ليس سببا دينيا فى المقام الأول بل سببا اقتصاديا فقد كان موسم الحج فى مكة طيلة ثلاثة شهور (ذى القعدة، وذى الحجة، والمحرم)، وكذلك موسم العمرة فى شهر رجب من كل عام، كانت تلك المواسم أعظم سوق تجارى فى شبه جزيرة العرب، وكان الأحباش يرون أن وجود الكعبة فى مكة هو سبب ذلك الرواج الاقتصادى الذى ينعم به أهلها، فإذا هم استطاعوا هدم الكعبة تحول الناس إلى كنيسة صنعاء ومن ثم تحولت التجارة إليها.

لذلك جهز أبرهة الأشرم الحبشى جيشه وسار به إلى مكة، وكان يتقدم الجيش الفيل العظيم الذى لم ير العرب مثله من قبل، ولم يكن فى مقدور أهل مكة مواجهة هذا الجيش الكبير، وأبرهة نفسه لم يكن راغبا فى الحرب وإنما هدفه هدم الكعبة، فإذا خلَّت قريش بينه وبين الكعبة يهدمها فلا ضرورة للحرب؛ ولذلك أرسل رجلا من رجاله اسمه حناطة الحميرى إلى مكة ليبحث عن زعمائها ويعرض عليهم الأمر، فذهب الرجل إلى عبد المطلب بن هاشم أبرز زعماء مكة فى ذلك الوقت وحدثه فى الأمر، فذهب على رأس وفد من كبار رجالات مكة إلى معسكر أبرهة، وعرضوا عليه أن يتنازلوا له عن ثلث ثمار منطقة تهامة ويرجع دون أن ينال الكعبة بأذى، ولكنه رفض ذلك وصمم على هدمها، عندئذ طالبه عبد المطلب بأن يرد له إبله التى كان جيشه قد استولى عليها، فقال له أبرهة: أيها الشيخ لقد هبتك حين رأيتك فلما كلمتنى زهدت فيك، فكيف تكلمنى عن الإبل وتتخلى عن البيت الذى هو دينك ودين آبائك، عندئذ قال عبد المطلب كلمته المشهورة: «أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه».

وبالفعل حمى الله بيته وذاد عنه، حيث أنزل على أبرهة وجيشه طيرا أبابيل، وقد سجل القرآن الكريم ذلك الحدث فى سورة سميت سورة الفيل.

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)** ﴾ [الفيل].



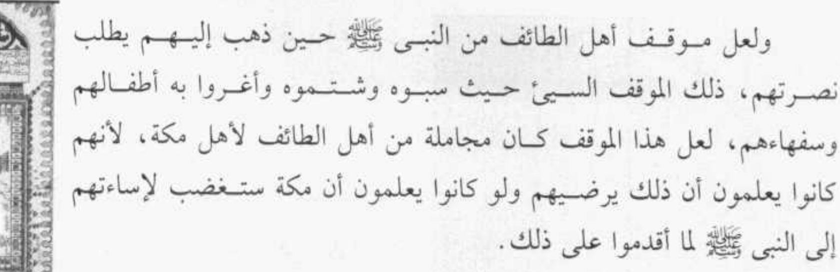


دمر الله تعالى جيش أبرهة بأبسط جنوده؛ وهى الطير الأبابيل وهلك أبرهة نفسه من وباء الجدرى الذى تفشى فى الجيش، لكن ذلك الحادث العجيب زاد من مكانة مكة الدينية والتجارية وزاد إقبال العرب على الحج إلى البيت الحرام وزادت لذلك مكانة عبد المطلب بن هاشم وترسخت زعامته وجرت كلمته التى قالها لأبرهة: «للبيت رب يحميه»، على كل لسان، ولا زال الناس يرددونها عندما يواجهون خَطْبًا لا قبل لهم به، ومما دل على علو مكانته بعد حادثة الفيل أنه تزعم وفد قريش الذى أرسلته إلى اليمن لتهنئة سيف بن ذى يزن بتحريرها من الأحباش، كما زادت مكانة مكة وهيبتها فى نفوس العرب بعد حادثة الفيل فقد اتسعت علاقاتها وتشعبت بكثير من قبائل العرب، وبصفة خاصة تلك القبائل التى كانت تقطن الطريق التجارى المؤدى إلى الشام، وهى قبائل جهينة ومزينة وأشجع وغفار وضمرة، وكانت على علاقات طيبة ببنى عذرة من قضاعة على أطراف الشام، وقد ترسخت تلك العلاقة منذ أيام قصى بن كلاب الذى كان تربى فى بنى عذرة حيث تزوجت أمه من أحدهم، وهم الذين أعانوه فى الوصول إلى زعامة مكة، كما سبقت الإشارة، كذلك ارتبطت مكة بعلاقات طيبة مع القبائل القاطنة على الطريق التجارى المؤدى إلى اليمن، مثل قبيلة خثعم التى كانت تعيش فى الهضبة الممتدة من الطائف إلى نجران.

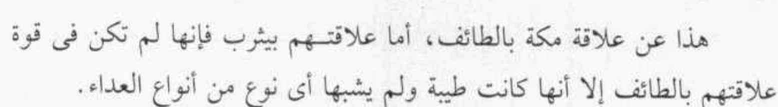
وكما حالفت مكة القبائل البدوية فقد كانت لها علاقات طيبة مع المدن الحجازية الأخرى، مثل الطائف ويثرب:

أما الطائف فكانت بينها وبين مكة علاقات وثيقة؛ مصاهرات وصداقات وكان كثيرون من أغنياء مكة لهم أملاك وعقارات وبساتين فى الطائف، وكان أبناء الطائف يشاركون فى قوافل مكة التجارية، وكانت سوق عكاظ وهى أكبر وأشهر أسواق العرب على مقربة من الطائف، وباختصار فقد كانت علاقة مكة بالطائف أقوى من علاقاتها بأية قبيلة أو مدينة أخرى، وقد وضحت قوة تلك العلاقات عند ظهور الإسلام، فقد لمسنا نوعا من توحيد المواقف فى مواجهة الدعوة الإسلامية فى البداية وكانت مقولتهم التى ذكرها القرآن الكريم: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** (٣١) ﴾ [الزخرف].

كانت هذه المقولة إشارة واضحة إلى توحيد مواقف المدينتين، بحيث إنه لو جاءت الرسالة الإسلامية لرجل من زعماء أحدهما لآمنت به كلتاهما.



ولعل موقف أهل الطائف من النبى ﷺ حين ذهب إليهم يطلب نصرتهم، ذلك الموقف السيئ حيث سبوه وشتموه وأغروا به أطفالهم وسفهاءهم، لعل هذا الموقف كان مجاملة من أهل الطائف لأهل مكة، لأنهم كانوا يعلمون أن ذلك يرضيهم ولو كانوا يعلمون أن مكة ستغضب لإساءتهم إلى النبى ﷺ لما أقدموا على ذلك.



هذا عن علاقة مكة بالطائف، أما علاقتهم بيثرب فإنها لم تكن فى قوة علاقتهم بالطائف إلا أنها كانت طيبة ولم يشبها أى نوع من أنواع العداء.

فقد تزوج هاشم بن عبد مناف من سلمى بنت عمرو بن زيد من بنى النجار، وأنجب منها ابنه عبد المطلب الذى قضى شطرا من حياته عند أخواله، وظل على صلة وثيقة بهم، هذه الصلة التى سيكون لها أثر عند هجرة النبى ﷺ إلى يثرب (المدينة المنورة) وكان لكثيرين من زعماء مكة غير عبد المطلب صداقات مع زعماء يثرب.

فقد كان أمية بن خلف القرشى، زعيم بنى جمح صديقا لسعد بن معاذ، زعيم الأوس وكان للعاص بن وائل زعيم بنى سهم وعتيبة بن ربيعة بن عبد شمس صداقات مع زعماء يثربيين، وباختصار ظلت علاقات مكة بيثرب طيبة، ثم تحدث الجفوة بل العداء والحرب بعد هجرة النبى ﷺ إلى يثرب ووقوف أهلها معه ونصرته؛ ولذلك سموا الأنصار، ولكن هذا كان وضعا مؤقتا فبعد فتح مكة وإسلام بقية قريش ذهب العداء وسار أبناء المدينتين معا لنصرة الإسلام وشاركوا فى الفتوحات الإسلامية وفى بناء الحضارة الإسلامية وكان منهم الخلفاء والأمراء وقادة الجيوش.

مكة المكرمة وعلاقاتها الخارجية:

على الرغم من أنه لم تقم فى مكة دولة بالمعنى الدقيق لكلمة دولة، وأن قريشا كانت تدير أمورها من خلال مجلس القبيلة ـ الملأ ـ حيث كان يجتمع شيوخها وأعيانها فى دار الندوة لمناقشة مشكلاتهم وعلاقاتهم بغيرهم، ويتخذون القرارات المناسبة، ولم يكن لهذه القرارات قوة ملزمة، اللهم إلا العرف الذى جرت عليه حياتهم، على الرغم من هذا فإن من يطالع تاريخ مكة فى القرن السادس الميلادى، وهو القرن السابق لظهور الإسلام يدرك أنه أصبح لمكة علاقات دولية بكل الدول المحيطة بشبه جزيرة العرب، فضلا عن علاقاتها الداخلية بعرب شبه الجزيرة، كعلاقاتها باليمن، التى تمتد جذورها إلى قيام الدول اليمنية القديمة، مثل الدول المعينية والقتبانية والسبئية التى بدأت فى الظهور منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، كذلك أصبح لمكة المكرمة علاقات طيبة مع الدولتين العظميين فى ذلك الوقت، الفرس والروم.




المسجد الحرام والمسجد النبوى - تصويرة من مصحف شريف سنة ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٤م

هذه العلاقات نمت وازدهرت مع نمو مكانة مكة وازدهار تجارتها بعد حادثة الفيل، ولقد أظهر زعماء مكة مقدرة كبيرة ومهارة وكياسة فى إدارة هذه العلاقات مع دول كانت متنازعة ومتحاربة فيما بينها، وقد حافظ زعماء مكة على علاقات ودية مع الفرس والروم فى الوقت الذى كانت الحرب مشتعلة بينهم، وبهذا حافظوا على استقلال بلدهم، واستقلال قرارهم بحيادهم بين هذه الدول، ولعلها حكمة إلهية بالغة تلك التى حمت مكة المكرمة من أن تقع تحت سيطرة أية قوة أجنبية فى تاريخها كله، فقد صان الله تلك الأرض المقدسة من أن تدنسها قدم احتلال أجنبى حتى يوم الناس هذا.

علاقات مكة بالفرس:

كانت اليمن تضطلع بدور رئيس بحكم موقعها فى التجارة العالمية بين الشرق والغرب، ولكن منذ سقوطها تحت الاحتلال الحبشى فى نهاية الربع الأول من القرن السادس الميلادى ثم تحت الاحتلال الفارسى منذ بداية الربع الأخير من ذلك القرن، منذ ذلك الوقت تدهورت أحوالها وتضاءل دورها التجارى، وكان ذلك فى صالح مكة، التى علت مكانتها وحظيت بنوع من التنظيم والاستقرار بسبب حكمة زعماء قريش وبعد نظرهم وحرصهم على عدم الزج بأنفسهم فى الصراع القائم بين الفرس والروم، ويبدو أن كلا من الفرس والروم قد أعجبهم حياد مكة لحاجتهم إلى وسيط تجارى محايد ضمانا لسلامة تجارتهم؛ ولذلك كان من السهل على أحد زعماء مكة وهو نوفل بن عبد مناف أن يحصل على معاهدة مع كسرى - ملك الفرس - تتيح لأهل مكة التجارة فى البلاد الفارسية وملحقاتها كالعراق ومنطقة الخليج وتتيح لتجارة هذه البلاد الوصول إلى أسواق مكة، فمن المعلوم أن العراق كانت تحت السيطرة الفارسية، وكان حكامها العرب المناذرة هم الذين يقومون بتوصيل التجارات الفارسية إلى أسواق مكة، إضافة إلى تجارتهم هم وكانوا مسئولين عن



توفير الحماية لتلك التجارة عن طريق اتفاقات مع زعماء القبائل التى تمر تلك التجارة بديارهم نظير مبالغ من المال تدفع لهم.



إيوان كسرى بالعراق

وقد ازداد نشاط مكة التجارى مع ملوك الحيرة المناذرة وكلاء الفرس كما تأثروا بهم حضاريا حتى ليقال إن أهل مكة تعلموا الكتابة من عرب الحيرة.

وظلت العلاقات التجارة بين مكة والفرس عن طريق الحيرة قائمة إلى ظهور الإسلام، بل زادت قريش من نشاطها التجارى فى تلك الجهات بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، وتصدى المسلمين لتجارة قريش الذاهبة إلى الشام عن هذا الطريق عقابا لها على ما صنعته معهم فى مكة من تعذيب وأذى ومصادرة أموالهم وإخراجهم من ديارهم، عندئذ حاولت قريش أن تعوض خسارتها بمضاعفة تجارتها مع الفرس وعرب الحيرة، لكن حتى هذا الطريق نفسه لم يعد آمنا، فقد تصدى لها المسلمون وضيقوا عليها الخناق لتخفف من عدائها نحوهم، وظل الأمر كذلك إلى أن حسم فى النهاية بفتح مكة وانتصار المسلمين بعدها جرت عجلة التاريخ جريانا سريعا فدخلت الدولة الفارسية نفسها وكل توابعها تحت راية الإسلام.

علاقات مكة بدولة الروم وملحقاتها:

فى صراعها مع الفرس على السيطرة على البلاد العربية، وبصفة خاصة الممرات والمراكز التجارية حاولت دولة الروم ـ الدولة البيزنطية ـ أن تبسط سلطتها على مكة، وقد سبق أن أشرنا إلى تشجيعهم الحبشة على احتلال اليمن نيابة عنهم؛ لأن الحبشة كانت تدين بديانتهم المسيحية وتدور فى فلكهم، هذه المرة أرادوا أن تكون مكة المكرمة نفسها تحت سيطرتهم عن طريق رجل من



أبنائها، هو عثمان بن الحويرث بن أسـد بن عبد العزى القرشى، الذى كان من الرافضين لوثنية قريش، فقد حـاول البحث عن ديانة أفضل منها وأداه بحثه إلى أن وصل إلى القسطنطينيـة واعتنق المسيحـية، وحسنت مكانته عند إمـبراطورها الذى رآها فرصة مـواتية أن يستخدم ذلك العـربى - الذى دان بديانته - فى بسط نفوذه على مكة، وكتب له كتابا إلى قومـه بأنه ملكه عليهم، وقد حاول عثمان بن الحويرث أن يقنع قـريشا بذلك،وخوفـهم عواقب إغضاب إمـبراطور الروم، فقد يصل الأمر إن لم يستجيبوا له أن يمنع تجارتهم من الوصول إلى بلاد الشام، ولو حدث هـذا لأضر بهم ضـررا كبيـرا، لكن قريشـا رفضت رفـضا حـاسمـا خطة عثـمان بن الحويرث، وأصرت على بقاء مـكة بعيدة عن حلبة الصراع الرومى الفارسى وأن تحـتفظ بحيادها، وكانوا من الحكمة والكـياسة وبعد النظر بحيث أدركـوا أنهم وإن كانوا يستفـيدون من تجارتهم مع الروم ووكلائهم من الغساسنة، فإن هؤلاء وأولئك يستفـيدون أيضا، فحاجة الروم والغساسنة إلى مكة ليست أقل من حاجة مكة إليهم، فالجميع له مصلحـة حيوية فى استمرار العلاقات التجارية، وبالفعل فـإن رفض قريش خطة عـثمان بن الحـويرث لجعل مكة تابعـة لدولة الروم لم يؤثر على العلاقات بين قريش ودولة الروم ووكلائهم الغساسنة بصفـة عامة، وعلى العلاقات التجارية بصفة خاصة، فقد استمرت تلك العلاقات بل تطورت وازدادت وظل الأمر كذلك إلى أن ظهر الإسلام، وهاجر النـبى ﷺ إلى المدينة المنورة، وأقام دولتـه وأصبح طريق قـريش التجارى إلـى الشام تحت سيطرة المسلمين، الذين حـاولوا مضايقة قريش والتـصدى لتجارتها لا لإهلاكهـا ولكن لإجبارها على تغيير سياستها نحوهم وتخـفيف عدائها لهم، وقد حدثت بينهم وبينها حروب فى بدر وأحد والخندق، وفى النهاية آتت سياسة الرسول ﷺ نحو قريش نتائجها.

ففتحت مكة فى العام الثامن الهجـرى بدون حرب تقريبا، وبفتح مكة وإسلام قريش بدأت كل جزيرة العرب تدخل فى الإسلام، ثم تبعتهـا الشام فى عهد الخلفاء الراشدين، وبذلك أخذت العلاقـات مع دولة الروم وضعا جديدا، فـبعد أن كانت عـلاقاتها مع قريش أصـبحت مع الدولة الإسلامية وتلك قصة أخرى تخرج عن نطاق هذا البحث.



على الرغم من قيام مكة المكرمة فى واد غيـر ذى زرع، كما أخبر بذلك القرآن الكريم، إلا أنها كانت تتمتع بدرجـة عالية من الرخاء والازدهار الاقتصادى وكان بعض أغنيائهـا يعيشون حياة مترفة، وكان سبب هذا الرواج الاقتصادى أمرين:



الأمر الأول: الحج، فمنذ أن أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يعيد بناء البيت الحرام، أن يؤذن فى الناس بالحج ـ كما سبقت الإشارة، منذئذ ووفود الحجيج لم تنقطع منه أبدا، وعلى الرغم من وجود كثير من بيوت العبادة فى شبه جزيرة العرب فى العصر الجاهلى، مثل بيت الأقيصر فى مشارف الشام الذى كان يحج إليه قبائل قضاعة ولخم وجذام وعاملة، وبيت ذى الخلصة فى اليمن، والذى كانوا يطلقون عليه الكعبة اليمانية، والذى كان يحج إليه قبائل دوس وخثعم وبجيلة، ثم بيت صنعاء وبيت نجران. .إلخ على الرغم من كثرة هذه البيوت فإن البيت الحرام هو الذى حظى بأعلى مكانة وأكبر قداسة عند العرب جميعا، وهو الذى خصه الله تعالى بالأمن والأمان، حيث قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا** .. (١٢٥) ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ .. **وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** .. (٩٧) ﴾ [آل عمران] وقال تعالى ممتنا على قريش عندما دعاهم النبى ﷺ إلى الإسلام فأعرضوا: ﴿ .. **أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** (٥٧) ﴾ [القصص].

كان العرب يأتون من جميع أرجاء شبه جزيرتهم، بل من خارجها ـ من العراق والشام ـ ليحجوا إلى بيت الله الحرام لتحقيق أكثر من هدف، منها الدينى ومنها الاجتماعى كتقوية الروابط بين القبائل ومنها الثقافى حيث كانت تعقد الندوات الثقافية فى عكاظ ومجنة وذى المجاز، ويلقى كبار الشعراء أشعارهم، ويتبارى الخطباء فى خطبهم، وكان الحج مناسبة لتبادل المعلومات والأفكار والأخبار بين الحجيج عما يدور فى بلادهم، وفى البلاد المجاورة لهم، مثل أخبار الفرس والروم وحروبهم وعلاقاتهم، ومن أهم الأهداف التى كان يحققها المكيون من الحج هو الهدف الاقتصادى، فطوال أشهر الحج الثلاثة، (ذى القعدة، وذى الحجة، والمحرم) كانت أسواق مكة وما حولها تعج بأنواع التجارات الوافدة من البلاد القريبة والبعيدة، وكانت الحرب محرمة عندهم فى تلك الأشهر الحرم، إضافة إلى شهر رجب الذى كان يخصص للعمرة، لأنه لكى يتاجر الناس ويقبلوا ببضاعتهم لابد أن يتحقق لهم الأمن، ولذلك كانوا يحترمون هذا التقليد، حتى قال قائلهم: كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فى الأشهر الحرم فلا يمسسه بأذى.

وقد حقق أهل مكة من وراء ذلك ثراء عريضا، وأصبحت بلدهم أهم مركز تجارى فى شبه جزيرة العرب، والاتجار فى موسم الحج أمر مباح ولا غبار عليه حتى فى الإسلام، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** (٢٧) **لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ** ..(٢٨) ﴾ [الحج].

فقد قال المفسرون: المنافع منها الأخروى ومنها الدنيوى، وهو ما يجنونه من مكسب التجارة وهذا تحقيقا لدعوة إبراهيم عليه السلام، حين دعا الله لهم قائلا: ﴿ **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ**

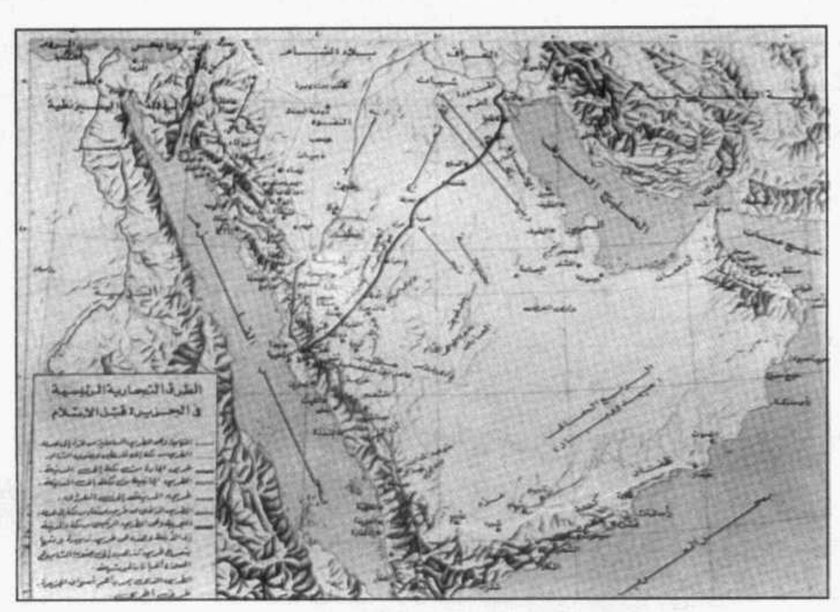


غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ [إبراهيم].



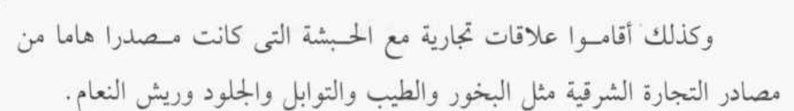
آثار من العصر العباسى في سوق عكاظ

الأمر الثانى الذى حقق لأهل مكة الرخاء والازدهار الاقتصادى هو التجارة مع البلاد المجاورة، فإضافة إلى ما كانوا يحققونه من أرباح فى موسم الحج كانوا يحققون أرباحا أخرى كثيرة من التجارة العالمية التى كانوا يقومون بدور الوسيط فيها، والتى برعوا فيها ومن أجلها أقاموا علاقات داخلية مع معظم القبائل العربية وبصفة خاصة تلك التى تمر قوافلهم بأراضيها؛ سواء عبر الشمال إلى الشام، أم عبر الشرق إلى نجد ثم العراق، أم إلى الجنوب نحو اليمن، ومن أجلها



خريطة التجارة قبيل ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية

أيضا أقاموا علاقات طيبة مع الدول الكبرى المحيطة بهم، فكما سبقت الإشارة أقاموا علاقات مع الفرس وأخذوا منهم إذنا بالتجارة فى بلادهم، وكذلك فعلوا مع الروم حيث سمحوا لهم بالاتجار فى بلاد الشام، بل عرفت قوافلهم التجارية طريقها إلى مصر، وتتحدث المصادر أن كثيرين من أبناء مكة زاروا مصر، مثل عمرو بن العاص.



وكذلك أقاموا علاقات تجارية مع الحبشة التى كانت مصدرا هاما من مصادر التجارة الشرقية مثل البخور والطيب والتوابل والجلود وريش النعام.

أنواع التجارات:

أظهر أبناء مكة ذكاء وفطنة وكياسة فى علاقاتهم بالدول والجماعات التى كانوا يتاجرون معها، وأداروا تلك العلاقات بمقدرة وحنكة جنبتهم الصدام مع غيرهم. وحافظوا بذلك على مركزهم التجارى وجنوا الأرباح الطائلة.



دينار ساسانى استخدم حتى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان

وكانت قوافلهم التجارية ضخمة، فقد كانت بعض القوافل تضم نحو ألفى بعير، وكانت الحاصلات وأنواع التجارات والسلع والبضائع التى تحملها تلك القوافل منها ما يأتى من الهند، مثل الذهب والقصدير والأحجار الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل، والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية... إلخ.



دينار بيزنطى



فلس عليه صورة الإمبراطور البيزنطى

ومن شرق أفريقيا، مثل العطور والطيب والأبنوس



والجلود وريش النعام والذهب والعاج والرقيـق. .إلخ، ومنها ما يأتى من اليمن مثل البخور واللبان والعطور والأحجار الكريمة والجلود. . .إلخ، ومنها ما يأتى من الشام مـثل القمح والدقـيق والزيوت والخمور. . .إلخ كـانت كل أنواع هذه التجارات إضـافة إلى منتجات بلاد العرب نفسـها من زيوت وتمر وصوف ووبر وجلود، كان كل ذلـك يصب فى مكة المكرمة، ثم يبـاع منه ما يبـاع فى موسم الحج والعمرة والباقى يحمل إلى البـلاد الأخرى، وهكذا تكتمل الدورة التجارية فى كل عام، وكانت عملة التعامل عندهم هى الدينار الذهب البيزنطى والدرهم الفضة الفارسى.



الأوضاع الاجتماعية فى مكة

وقد اقتربنا من نهاية الحديث عن مكة المكرمة فى العـصر الجاهلى، فينبغى أن يعرف القارئ تركيبة المجتمع المكى عشية ظهور الإسلام، الذى سيدخل تعديلا جذريا لهذه التركيبة، لا فى مكة وحدها، بل فى جمـيع البلاد التى ستدخل فى الإسـلام، فقد قامت دعـوة الإسلام على المساواة المطلقة بين البشر فى أصل خلقتهم، فالناس جـميعا من أب واحد وأم واحدة، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

ولقد كانت دعـوة المساواة هذه من أهم ما أثار عداوة قريش للإسـلام فى البداية، إذ كيف يسوى بين السادة والعبيد؟

نشأت مكة المكرمـة ـ كما أسلفنا القول ـ بعد اسـتقرار إسماعـيل عليه السلام وأمه فـيها، وكانت أول قبـيلة عربية عمرتهـا وسكنتها هى قبيلة جـرهم اليمنية، ثم بعد جرهم خـزاعة وبعد خزاعة قريش، التى جمعها قـصى بن كلاب بن مرة من البوادى وأخرج خزاعة من مكة وأسكنها قريشا، كـان ذلك فى مطلع القرن الخامس الميلادى، ولقـد مر بنا ما فعله قـصى وأولاده وأحفاده لمكة من تطوير، ومـا أنشأوه فيـها من نظم ووظائف، فـلا يختلف المؤرخون على أن مـكة مدينة لتطورها وازدهارها وعمرانها لقصى وأولاده وأحفاده بالشىء الكثير.

كان سكان مكة عشية ظهور الإسلام يتكونون من ثلاث طبقات:



١ - قريش:

وهم أبناء القبـيلة الذين أطلق عليهم المؤرخون (الصـرحاء)، وهم أصل المجتـمع المكى وسواده الأعظم، وكانوا يتـمتعـون بكل ما نظمه قـانون العرف القبلى من حـقوق، كمـا كان عليهم ما فـرضه من واجبـات، على أساس من التضامن التام بين الفرد والجماعة، فى ظل رابطة الدم المشترك. . . وقد حظيت قريش بنوع من الاستقرار والأمن لم يتوافر لغـيرها من القبائل، فقد ضمن لها وجودها بجـوار البيت الحرام حـرمة عامة فى نظر القـبائل العربيـة، فسلمت من الغارات القـبلية عليها، كـما أنه لم تحدث بين بطون قريش اشـتباكات تؤدى إلى وقوع الدمـاء بينها، بل حرصت القبيلة دائما على حل منازعاتها العشائرية سلمـيا، ولكى تقضى على المنافسات العشائرية توسعت فى قاعدة الحكم، وارتضت نوعا من الحكومة تستطيع أن تسميه حكومة النظراء، وهى حكومة الملأ المكون من زعماء العشائر. . وكانت وحدة القبيلة القـرشية مظهرا رائعا فى نظر القبائل العربية التى جعلت من قريش موضع إجلالها وقدوتها، وأصبح كثير من رجالها فى مكان الحكام بين المتنازعين من قبائل العرب.

٢ - طبقة الموالى:

كثـر العرب الأحرار الذين سكنوا مكة من غـير قريش، وارتبطوا مـع أهلها برابطة الولاء، فهم موالى لا بمـعنى العبيد الذين أعـتقوا ـ كما هو الشـائع من هذا التعبيـر ـ ولكن موالى بمعنى الحلفاء، وذلك كالأخنس بن شريق الثقفى، الذى كان مولى لبنى زهرة، أحد البيوتات المرموقة فى مكة، وبديل بن ورقاء الخزاعى، الذى كان ذا منزلة كبـيرة فى مكة. وكان هؤلاء الموالى مسموعى الكلمة عند زعـماء قريش، لهم تأثير كـبير على القـرار القرشى، فقد اسـتطاع الأخنس بن شريق التأثير على حلفائه بنى زهرة وأقنعهم بعدم المشاركة مع قريش فى غزوة بدر سنة ٢هـ ضد الرسول ﷺ فلم يشهـد بدرا زهرى واحد ـ على حد قول ابن إسـحاق ـ استجـابة لرأى الأخنس لأنه كان فيهم مطاعا.

أما بديل بن ورقاء الخـزاعى فقد بلغ من مكانته فى مكة أن كان أحد الزعـماء الثلاثة الذين خرجوا لملاقاة النبى ﷺ حين قدومه لفتح مكة لأخـذ الأمان منه لأهلها، والآخران هما أبو سفيان ابن حرب بن أمية وحكيم بن حزام.



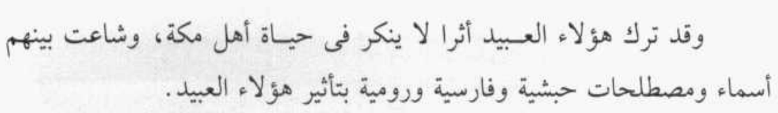
فطبقة الموالى ـ الحلفاء ـ كانت فى مكة ذات شأن كبير ومنزلة رفيعة، لأن قريشا أفسحت صدرها لـهم وعاملتهم معاملة كريمة، تمشيا مع سياستها العامة التى كانت تتوخى حسن العلاقة مع الجميع؛ لأن لها فى ذلك مصلحة ذاتية، وهم بدورهم قابلوا إحسان قريش لهم بأحسن منه، فقد أخلصوا لها إخلاصا كبيرا وأعلوا مصلحتها فوق كل اعتبار، لدرجة أنهم كانوا يقاتلون فى صفوفها كأنهم من صريحها، وتمثل ذلك فى حروب قريش ضد الرسول ﷺ، وإذا نظرنا إلى قوائم القتلى والأسرى التى أوردها ابن إسحاق فى غزوة بدر الكبرى لوجدنا أن هؤلاء الموالى قد تحملوا ما يقرب من نصف الخسائر حتى قائمة المهاجرين الأولين بعد بيعة العقبة الثانية كان أكثر من نصفهم من هؤلاء الموالى.

٣ - طبقة العبيد:

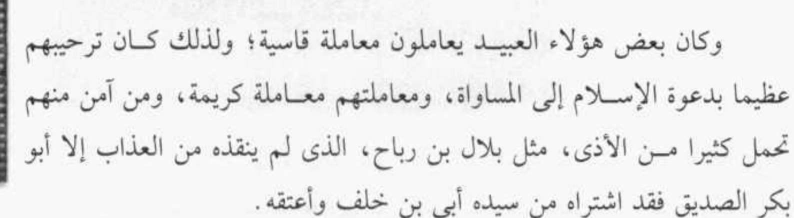
وجدت فى مكة أعداد كبيرة من العبيد قبل الإسلام لحاجة أهل مكة إليهم فى أعمال التجارة، فأشراف قريش كانوا يأنفون من العمل اليدوى، فحمل التجارة على الإبل وتفريغها وتخزينها وإخراجها للأسواق، كل ذلك يتطلب أعدادا هائلة من الأيدى العاملة، وكان عبء ذلك كله يقع على هؤلاء العبيد، كذلك كان أثرياء مكة فى حاجة إلى أعداد كبيرة منهم لخدمتهم الخاصة فى شؤون حياتهم، فكثير من هؤلاء الأثرياء كانوا يعيشون حياة ناعمة مترفة؛ ولذلك كان طلبهم للعبيد ـ بنين وبنات ـ للقيام على خدمتهم وإرضاء لنزواتهم خاصة فى مجالس الشراب والطرب والسمر، وكانت الغالبية العظمى من هؤلاء العبيد تأتى من شرق أفريقيا، وكان بعضهم يأتى من العراق والشام، وكان هؤلاء من أسرى الحروب التى كانت كثيرة الوقوع بين الفرس والروم، فكانوا يجلبون إلى مكة ويباعون لأهلها، كذلك عرفت مكة الرقيق الذى كان يجلب من أسواق النخاسة فى أوروبا وغالبيتهم من الجنس الأبيض، وكان هؤلاء العبيد فى جملتهم يقومون بالدور الرئيسى فى دنيا التجارة القرشية، وما تتطلبه من إدارة وبيع وشراء. .إلخ، كما كان بعضهم يجيد كثيرا من الحرف والمهن التى يحتاج إليها أهل مكة، مثل أعمال البناء التى كانت تحتاج إلى كثير من المهن والحرف كالحدادة والنجارة. . .إلخ.

وعرفت بيوت أثرياء مكة كثيرا من الإماء اللاتى كن يخدمن فى البيوت، بل بعضهم كن يتخذن للمتعة الشخصية والترفيه عن الأثرياء فى الحانات وأماكن اللهو.

وباختصار كثر الرقيق فى مكة كثرة هائلة حتى ليروى أن سعيد بن العاص اشترى مائة عبد وأعتقهم دفعة واحدة.



وقد ترك هؤلاء العــبيد أثرا لا ينكر فى حيـاة أهل مكة، وشاعت بينهم أسماء ومصطلحات حبشية وفارسية ورومية بتأثير هؤلاء العبيد.



وكان بعض هؤلاء العبيـد يعاملون معاملة قاسية؛ ولذلك كـان ترحيبهم عظيما بدعوة الإســلام إلى المساواة، ومعاملتهم معـاملة كريمة، ومن آمن منهم تحمل كثيرا مــن الأذى، مثل بلال بن رباح، الذى لم ينقذه من العذاب إلا أبو بكر الصديق فقد اشتراه من سيده أبى بن خلف وأعتقه.

هذه هى باختـصار شـديد أوضاع مكة المكرمـة وأحوالهـا السياسـية والدينيـة والاقتـصاديّة والاجتمـاعية منذ نشأتها إلى ظهـور الإسلام الحنيف الذى بدل كل شىء فيهـا وفى غيرها من بلاد العالم.





في عـام الفيل ـ عـام غزو الحبشـة لمكة المكرمة ـ نحـو سنة ٥٧٠م ولد محمد بن عبد الله بن عـبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة، والذى يرتفـع نسبه إلى إسـماعيل ابن إبراهيم، عليـهمـا السلام، فهـو من ذؤابة العرب العدنانية ـ وهم الذين يـسميهم المؤرخون العرب المستعربة، تمييزا لـهم عن العرب (العاربة) وهم الذين ينحدرون من نسل يعرب بن قحطان، الذين هم سكان اليمن.

وقد مات عـبد الله والد النبى ﷺ قبل أن يولد هو، قـيل مات بعد شهريـن من حمل أمه به، فنشأ يتيما.

وماتت أمه وهى السيدة آمنة بنت وهب بن زهرة، وهو فى السادسة من عمره، أثناء عودتها به من زيارة قامت بهـا إلى يثرب لأخـوال جده عبد المطـلب، ولزيارة قبر أبيـه عبد الله بن عـبد المطلب الذى توفى ودفن هناك، وأثناء عودتها به مرضت وماتت ودفنت بالأبواء فعادت به جاريته أم أيمن إلى مكة، فكفله جده عبدالمطلب، وكان شديد العناية به والعطف عليه، محاولا تعويضه حنان الأب الذى لم يره، غيـر أن حياة عبد المطلب لم تـطل بعد ذلك فقد توفى بعـد عامين من وفاة آمنة بنت وهب، أم النبى ﷺ، وكفله عمه أبو طالب بن عبد المطلب وضمه إلى أولاده وكان يفضله عليهم فى المأكل والملبس.

ورسول الله ﷺ لـم يرض لنفسه أن يعـيش عالة على عـمه أبى طالب ـ الذى كـان كثـير العيال قليـل المال ـ فاحترف مهنة رعى الغنـم بالأجر لأهل مكة، ولما كبر سنه وأصـبح شابا عمل بالتجارة، وكان له شريك من أهل مكة اسمه السائب بن أبى السائب.

تجارته فى مال خديجة ورحلته الثانية إلى الشام:

اشتهر النبى ﷺ -قبل بعثته- بأعظم وأنـبل الصفات؛ من العفة والصدق فى الحديث وشرف القصد، والأمانة، حتى لقبه أهل مكة بالأمين، هذه الصفات العالية رشحته للعمل فى تجارة خديجة بنت خويلد، التى كانت من كـبار تجار مكة وأغنيائها، وتروى كتب السـيرة أن أبا طالب عرض على النبى ﷺأن يكلم له خديجـة بنت خويلد ليعمـل فى تجارتها، وهى امرأة شـريفة وكريمة وسـخية، وسوف تعطيـه أجرا مضاعـفا عما تعطى غـيره، فوافق النبى ﷺ، ولما عـرض أبو طالب الأمر على خديجة وافـقت، بل رحبت وقالت لأبى طالب «لو طلبت هذا لبـعيد بغيض لأجـبناك، فكيف وقد طلبته لقريب حبيب» وقيل أن خديجة هى التى عرضت عليه العمل فى تجارتها لصدقه وأمانته.

تم الاتفاق بين محـمد ﷺ وخديجة على العمـل معها فى تجارتهـا، وفى أول قافلة تجارية ذاهبة إلى الشام، ذهب مـحمد ﷺ مع ميسرة غلام خـديجة الأثير لديها وموضع ثقـتها، وكانت



هذه هى رحلة محمد ﷺ الثانيـة إلى الشام، أما رحلته الأولى فكانت وهو فى نحو الثانية عـشرة من عمره، مع عمه أبى طالب، وكـان هو الذى تعلق بعمه وتاقت نفسه للقيام بهذه الرحلة، ومع إشفاق عـمه عليه من مشقة السـفر فإنه أذعن لرغبـته وصحـبه معه، وهى الرحلـة التى التقى فيـها النبى ﷺ بالراهب النصرانى بحيرى، الذى عرفـه من خلال وصفـه فى كتبـهم ونصح أبا طالب بالرجوع به إلى مكة، وحذره من غدر اليهود به، فقد قال له: «احذر عليه من اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عـرفت لبغته شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم».

وذهب محمد ﷺ مع ميسرة إلى الشام فى رحلته الثانية هذه فى تجارة خديجة وهو فى نحو الخامسة والعشرين من عمره، وظهر لميسـرة عظيم أخلاق النبى ﷺ وصدقه وأمانته، فازداد حبا له من خلال مـعايشته أثناء الرحـلة، وقد نجحت التجـارة فى هذه المرة وحققت ربحـا ربما لم يحدث لخديجة من قبل، وأرد ميسرة الذى تعلق قلبـه بحب محمد ﷺ أن يكون هو الذى يبلغ خديجة بما صنع الله لهـا على يديه، وقال له: «فـإنها ستـعرف لك ذلك - أى سـتكافئك مكافـأة تليق بك - فانطلق مـحمد ﷺ حتى دخل مكة فى سـاعة الظهيرة، ودخل على خـديجة فاستقـبلته فى دارها أحسن استقبال، واستمعت إليه باهتمـام وهو يقص عليها خبر رحلته وما ربحت تجارتها، ولما أقبل ميسرة روى لها ما زادها إعجـابا بمحمد ﷺ ورغبة فيه، فقد حدثها عن رقة شـمائله وجمال نفسه وأمانته وصدقه، ولعل ميـسرة كان قد استشف من حديثه مع خديجة قـبل السفر أنها ربما تكون قد فكرت فى الزواج منه، وهى التى كـانت قد رفضت الزواج من كثـيرين من زعمـاء مكة - بعد أن ترملت مرتين - ولذلك كـان اقتراح ميسـرة على محمد ﷺ أن يسبـقه إليها ليزف لهـا بشرى نجاح الرحلة وربح التجارة، وهذا أمر رتبه الله سبحانه وتعالى حيث أراد أن يرتبط النبى ﷺ بهذه السيدة الجليلة التى ستقف معه بكل ما تملك وتكون عونه على تبليغ رسالة ربه عندما يحين الوقت.

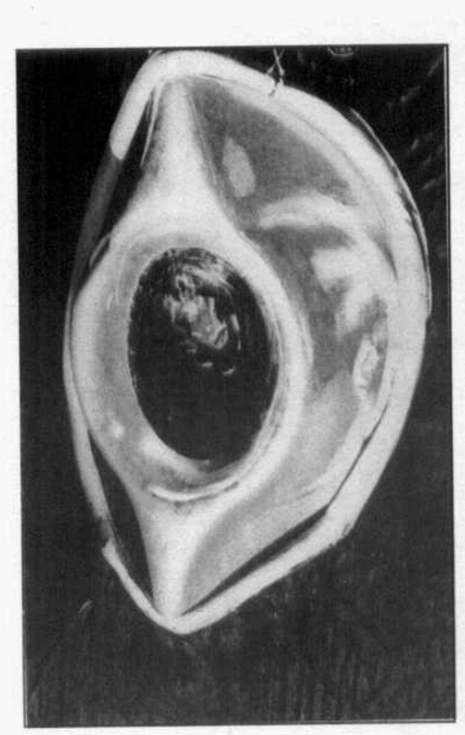
الطيبات للطيبين

لقد اختار الله تعالى لأشرف خلقه وخاتم أنبيائه ورسله أشرف امرأة فى قريش لتكون زوجة له، فهى امرأة شريفـة ذات ثراء عريض، وهو رجل مكتمل الرجولة، قوى أمين، فـأغناها بأمانته وكفلهـا برجولتـه ووجه مالـها إلى الخيـر بحسن نيـته وطيب طويتـه، وقد رزقه الله منهـا البنين والبنات، فهى أم أبنـائه جميـعا - عدا إبراهيم - ولدان همـا: عبد الله والقـاسم، وأربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، ومن الأخيرة - وهى فاطمة رضى الله عنها - التى زوجها من على ابن أبى طالب رضى الله عنه، كانت ذرية النبى ﷺ من ولديه الحسن والحسين رضى الله عنهما.





قضى رسول الله ﷺ حياته من مولده إلى بعثته - وهو فى الأربعين من عمره - وهو يتمتع فى مكة بكامل الاحترام والإجلال لصفاته الحميدة التى اشتهر بها؛ من العفة والصدق والأمانة وطيب العشرة والحياء.. إلخ، وآية هذا الاحترام والثقة التى كان أهل مكة يولونه إياها أنهم ارتضوا حكمه فى قضية كادت تشعل الحرب بينهم، وهى قضية وضع الحجر الأسود فى مكانه عندما أعادوا بناء الكعبة - وقد شارك هو نفسه ﷺ فى ذلك البناء، وكان ذلك قبل بعثته بنحو خمس سنين - فلما شب الخلاف وتداعوا إلى الحرب اقترح أحدهم، وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومى، أن يحكّموا بينهم أول داخل عليهم فكان هو ﷺ، فصاحوا جميعا فرحين بمقدمه، وقالوا: هذا هو الأمين فحكّموه، فحل هذا الإشكال الخطير، بحل فى غاية البساطة والعبقرية فى الوقت نفسه، حيث طلب منهم أن يحضروا رداء ووضع الحجر فوقه، وأن تشترك القبائل كلها، فى رفع الحجر وهو فى الرداء ثم أخذه بيده الشريفة ووضعه فى مكانه؛ وبهذا انطفأت نار الفتنة ورضيت القبائل كلها، ثم إنه كان يشاركهم فى كل نشاطهم الاجتماعى وغيره، فقد شاركهم فى حرب الفجار وفى حلف الفضول - كما سبقت الإشارة - وفى غير ذلك، إلا أمرا واحدا لم يشاركهم فيه قط، وهو عكوفهم على عبادة الأصنام وتقديسها فقد نشأ ﷺ مبغضا لها، كما صانه الله تعالى من كل ما يشين الإنسان الكامل، فلم يشرب الخمر مثلهم، ولم يلعب الميسر، بل يروى أنه وهو طفل صغير هفت نفسه إلى مشاهدة عرس فى مكة، فلما اقترب من المكان أخذه النوم فلم يشعر إلا والعرس قد انقضى دون أن يراه، كما يروى أنهم عندما كانوا يعيدون بناء



الحجر الأسود



الكعبة وكانوا عـرايا ـ أثناء العمل ـ كعادتهم ـ فطلب منه عمه العـباس بن عبد المطلب أن يصنع مثـلهم ويخلع ثيابه فلما همَّ بذلـك لكزه لاكز وهتف فى أذنه قائلا: شـد عليك ثيابك. كل ذلك صيـانة من الله تعالى لمن اختـاره واصطفاه لحمل آخر وأعظم رسالاته إلى الناس جميعا.



فى غار حراء

كان رسول الله ﷺ دائم التفكير فيما عليه قومه من عبادة الأصنام، وكان يدرك أنه لابد من الخلاص من هذه الحالة المخزية، وهذا شيء طـبيعى فإذا كان بعض عقلاء العـرب العاديين، أمثال ورقة بن نوفل وزيد بن عمـرو بن نفيل، وعثمـان بن الحويرث وغيرهم قد كـرهوا عبادة الأصنام وأخذوا يبحثون عن طريق أفضل لعبادة الله سـبحانه وتعالى، ومنهم من تنصر، وهم الذى عرفوا بالحنفاء.. إذا كان هؤلاء فكروا وبحثـوا عن الإله الحق، فمن باب أولى أن تكون هذه حال خاتم الأنبياء ﷺ، فـقد كان كثيرا مـا يذهب إلى خارج مكة يفكر ويبحث وقد حـبب إليه الخلاء ـ أى الخلوة مع نفسه ـ وكـان يطيب له أن يذهب إلى غار حراء، يتعـبد فيه الليالى ذوات العـدد ـ كما تقول كـتب السيرة ـ إلى أن حـانت اللحظة الخالدة، وجـاءه النبأ العظيم، فـقد أتاه جبـريل عليه السلام، بصورة مفـاجئة فى ليلة من ليالى شهر رمضان ـ وهو فى غـار حراء ـ وفى يده رقعة من (ديباج)، وقال له: «اقـرأ، فيجيـبه مأخوذا لنداء: مـا أنا بقارئ ـ لأنه كان أميـا لا يعرف القراءة والكتابة ـ فيضمه جبريل ضمـا قويا إلى صدره، ويقول له: اقرأ، فيكرر النبى ﷺ: ما أنا بقارئ، وفى الثالثـة يقول له جـبريل: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)** ﴾ [العلق].

ألقى جـبريـل عليه السـلام على قلب النـبى الكريم ﷺ هذه القطرات الأولى من الفـيض الإلهى وتركه وانصرف ولا يمكننا نحن بحسنا البشرى العادى أن ندرك ما كان يعانيه النبى ﷺ فى تلك اللحظات الخالدة، التى اتصلت فـيها السماء بالأرض، وهو يتلقـى أولى آيات الكتاب العزيز الذى قال الله عنه: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.. (٢١)** ﴾ [الحشر].

وقال عنه: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)** ﴾ [المزمل].



خديجة مالى؟...

عاد النبى ﷺ من غار حراء بعد هذا اللقاء الأول مع أمين الوحى جبريل يرجف فؤاده من شدة ما رأى، عاد إلى بيتـه، إلى زوجه خديجة. . إلى حصنه الذى كـان يلجأ إليـه كلمـا حزبه أمـر، فكان يجـد عندها الأمان والاطمـئنان والسكينة، عـاد هذه المرة وهو فى حـالة لم يعرفـهـا من قبل، وبادرها قـائلا: خديجة ما لى؟.

كأنه يقول لها: هل ترين بى شـيئا غير عادى، فسألت بدورها: ما الأمـر؟ فقص عليها ما حدث مـعه من جبـريل، وقال لها: «لقـد خشيت على نفـسى» من شدة ضم جـبريل له، ولكن العجيب فى الأمر أن هذه السيدة العظيمة أقـبلت عليه تسمع فى اهتمام ظاهر مهدئة مطمئنة، ولم يبد عليها أى خوف أو قلق، وكأنها كانت تتوقع ما حدث، حيث قالت له فى لهجة واثقة: «أبشر يا ابن عمى واثبـت، فوالذى نفس خديجـة بيده إنى لأرجو أن تكون نـبى هذه الأمة» ثم أردفت قائلة: «كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتـصل الرحم وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

خديجة عند ورقة بن نوفل:

لكى تزيد خديجـة محمـدا طمأنينة وثباتا ذهـبت إلى ابن عمهـا ورقة بن نوفل ـ وهو من الحنفاء، ولديه علم بالكتب السمـاوية السابقة، فحدثته عما حـدث للنبى ﷺ، فقال الرجل ـ بعد أن سمع منها ـ: «قدوس قـدوس، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خـديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبت».

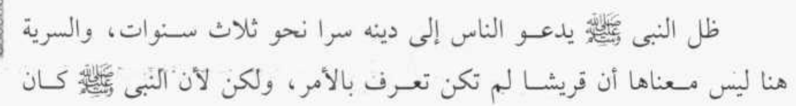
أول الناس إسلاما:

كان من الطبيعى أن تكون خديجـة رضى الله عنها أول المؤمنين برسول الله ﷺ والمصدقين لدعوته، لأنها أقرب الناس إلـيه وأعرفهم بخلقه، فقد آمنت من أول لحظة، وتـبعها على بن أبى طالب، وقد كان صـبيا فى نحو العـاشرة من عمره، وكـان يعيش فى بيت النبى ﷺ، ثم آمن به مولاه زيد بن حارثة.

وكان أول المؤمنين برسول الله ﷺ من الرجـال من خارج الدار أبو بكر الصديق رضى الله عنه، والذى كانت تربطه بالنبى ﷺ صداقة ومودة قوية، وعن طريق أبى بكر أسلم طائفة من كبار الصحابة، وهم: عـثمان بن عفان، والزبيـر بن العوام، وعبد الرحمن بن عـوف، وسعد بن أبى

وقاص، وطلحة بن عبيـد الله، هؤلاء أسلموا بدعوة أبى بكر إياهم، لأنه كان رجلا محببا إلى قومه، وكانـوا يألفونه لحسن خلقه وطيب معاشرته وتجاربه فى الحياة. ثم تتابع دخول الصحابة فى الإسلام، ولكن فى سرية تامة.

الدعوة السرية:



ظل النبى ﷺ يدعـو الناس إلى دينه سرا نحو ثلاث سـنوات، والسرية هنا ليس مـعناها أن قريشـا لم تكن تعـرف بالأمر، ولكن لأن النبى ﷺ كـان يجتمع بأصحابه سرا فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى، ولم يتعرض لقريش وآلهتها، فتركته هى دون أن تتعرض له، ولكن الموقف سيتغير عندما يعلن دعوته ستقف منه موقف العداء المطلق، وتصب على أصحابه ألوان العذاب وتقف بكل طاقتها فى طريق الدعوة الإسلامية.

الجهر بالدعوة:

أدت المرحلة السرية دورها، وحـققت هدفهـا، فقد نجح النبى ﷺ فى دعوة مـا يقرب من أربعين رجلا، وأعدهم لتحمل مشاق الدعوة وتكاليفها وآن له أن يعلن عن دعوته مذعنا لقول ربه سبحانه وتعالى: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾** ﴾ [الحجر]، وقوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾** ﴾ [الشعراء].

بناء على هذا الأمر الإلهى دعا النبى ﷺ قومه إلى الإسـلام، حيث صعد على ربوة الصفا وناداهم قائلا: «يا بنى عـبد مناف يا بنى زهرة يا بنى أسـد يا بنى مخزوم يا بنـى تيم.. إلخ فلما اجتمـعوا عليه قال لهم: «أرأيتم لو أنى أخـبرتكم أن خيلا خلف هذا الجبل تريـد أن تغير عليكم أكنتم مصـدقى؟ قالوا: نعم ما جربـنا عليك كذبا قط. قال: «فإنى نـذير لكم ورسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة بين يدى عذاب شـديد وإن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصـيبا، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله عندئذ رفض عمه أبو لهب، وصاح ساخرا منه، وقال: تبا لك!! ألهذا جمعتنا؟ وانفضُّوا عنه جميعا دون أن يؤمنوا.

وقد رد الله تبـارك وتعالى على أبى لهب تلك الإهانة التـى وجههـا إلى النبى ﷺ وسجل عليه أنه من أهل النار، فـقال تعالى: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾** ﴾ [المسد]، وعلى الرغم من هذا الرد السـيئ الذى جـاء من أقرب الـناس إلى النبى ﷺ، وهو عـمه أبو لهب فـإن الدعوة الإسلامية كسبت مسلمين جددا، كـان فى مقدمتهم ومن أهمهم حمزة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، وعمر بن الخطاب الذى كـان إسلامه فتحـا، وهجرته نصرا، وخلافته عـدلا ورحمة،



كما عبر عن ذلك عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، فمما لا شك فيه أن إسلام حمزة رضى الله عنه، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان دفعة قوية للدعوة الإسلامية، وكان سرور رسول الله ﷺ بإسلامهما عظيما وبدأ المسلمون يصلون جهرا وبحرية عند الكعبة وما كانوا يقدرون على ذلك قبل إسلام حمزة وعمر رضى الله عنهما.

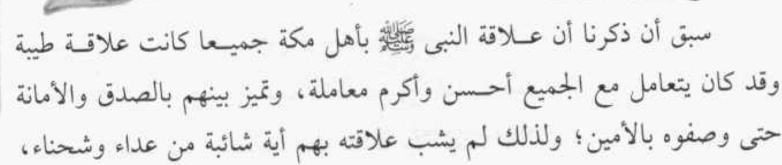
من مخطوط حمزة نامة - رسم بأمر الإمبراطور أكبر

فى الهند المغولية الإسلامية ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م



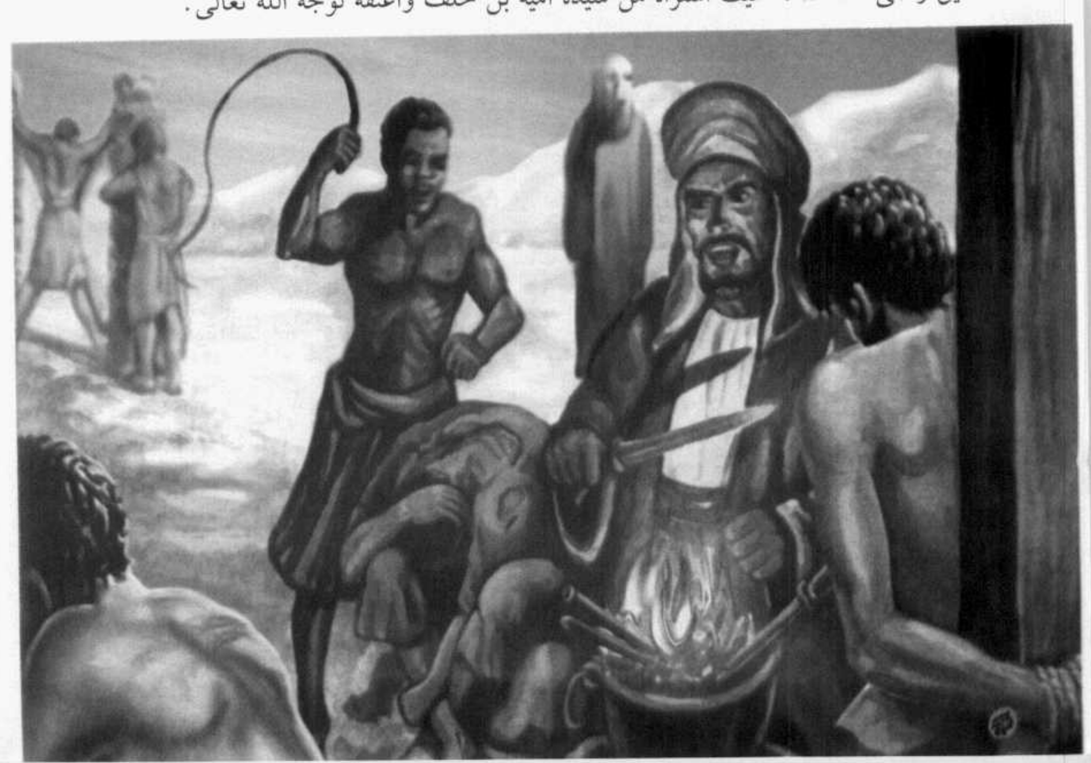


موقف قريش من الدعوة الإسلامية



٥٥

سبق أن ذكرنا أن عـلاقة النبى ﷺ بأهل مكة جميـعا كانت علاقـة طيبة وقد كان يتعامل مع الجميع أحـسن وأكرم معاملة، وتميز بينهم بالصدق والأمانة حتى وصفوه بالأمين؛ ولذلك لم يشب علاقته بهم أية شائبة من عداء وشحناء، وظل الأمر كذلك حتى بعد الدعوة فى مرحلتها السرية، ولكن منذ صدع بالأمر ودعاهم علانية إلى الإيمان بالله تعالى، ونبـذ عبادة الأصنام، فعندئذ تغـير موقفهم وأعلنوا عـداءهم الصريح للدعوة الإسلامـية وصاحـبها، ولم يكن عـداء سلبيا بمـعنى أنهم لم يؤمنوا وتركوه يدعـو لدينه فى حرية وأمان، ولكنه كان عداء إيجابيا سافرا، فقد أعلنوها حربا شعواء عليه وعلى أصحابه وصبوا عليهم جام غضبهم وعذبوهم عذابا شديدا، وبصفة خاصة الضعفاء والعبيد منهم، مثل آل ياسر وبلال بن رباح، وكان هؤلاء نماذج رائعة للثبات على المبـدأ والتضحية من أجل العقيدة، فقد اسـتشهد ياسر وزوجه سمـية من جراء تعذيب قـريش لهما، وتحمل بلال مـا تحمل من التعذيب حـتى أنهم كانوا يضعونه على رمال الصحـراء المحرقة، وتحت لهيب أشعة الشمس، ويضعـون الحجارة الثقيلة على صدره بلا شىء إلا لأنه يقول: ربى الله، فلم يلن ولم يضعف وظل على ذلك إلى أن أنقذه أبوبكر الصديق رضى الله عنه، حيث اشتراه من سيده أمية بن خلف وأعتقه لوجه الله تعالى.





أسباب عداء قريش للإسلام:

ولكن لابد من السؤال لماذا وقفت قريش من الإسلام هذا الموقف العدائى البغيض؟ هل كـان إيمانها بوثنيتها وأصنامـها هو السبب؟ الحق لم يكن هذا هو السبب، لأنها لو كانت تؤمن بالوثنية والأصنام إيمانا حقيقيا لما تخلت عنها أبدا ولكنهـا تخلت عنهـا فى نهـاية الأمر، بل كـانوا هم الذين حطمـوا أصنامـهم بأيديهم، لأنهم كانوا يعلمون أنها باطلة ولا تضـر ولا تنفع، وكل دفاعهم عنها قولهم: ﴿ .. مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ.. (٣) ﴾ [الزمر].

إذن ما هو السبب الذى جعل قريشا تعادى الإسلام والمسلمين طوال أكثر من عشرين عاما، وتعاملهم تلك المعاملة القاسـية، الخالية من الإنسانية والرحمة وتجـبرهم على ترك وطنهم والهجرة إلى الحـبشـة، ثم فى نهـاية المطاف الهـجـرة إلى يثـرب بعد سلسـلة من المساءات والمـقاطعـات الاقتصادية... إلخ.

يمكن تلخيص الأسباب التى جـعلت قريشا تعادى الدعوة الإسلامية وتجـعل القضاء عليها شغلها الشاغل منذ ظهورها إلى فتح مكة سنة ٨هـ فى الأمور التالية.

أولا: المنافسة بين القبائل على الزعامة فى مكة:

فكل البطون القرشية تقريبا رأت أن النبوة فى بنى هاشم تعطيهم ميزة وتفوقا على غيرهم لا يدانى؛ لذلك حسدهم على ذلك، ولقـد جاءت كثير من الأقوال عـلى ألسنة زعماء بعض البطون المكية - مثل أبى جـهل - عمرو بن هشام - وأبى سفيـان بن حرب، تؤكد هذا المعنى، وهؤلاء لم يدركوا أن النبـوة اصطفاء من الله تعالـى لأنبيائه ورسله، وليـست من قبيل الأمـور الدنيوية التى يتنافس عليها البشر، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

ثانيا: دعوة المساواة:

من الأمور التى أهاجت قريشا وجعلتها تقف من الإسلام هذا الموقف العدائى دعوة المساواة المطلقة بين البـشر، التى أعلنها الإسلام بكل وضـوح وحسم منذ اللحظة الأولى، فالناس جمـيعا أمام الله سـواسية كـأسنان المشط، وهم مخلوقـون من أب واحد وأم واحدة، وأكـرمهم عند الله أتقاهم، ولا فـضل لعربى على أعـجمى إلا بالتـقوى، ولكن كـيف ذلك؟ كيف تقـبل قريش أن يسوى محمد ﷺ بين سادتها وعبيدهم؟



ثالثا: الإيمان بالبعث:

من أصول العقيدة الإسلامية الإيمان بالبعث بعد الموت، لكن أهل مكة بل ومعظم العرب ـ كانوا لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، وينفرون من ذلك نفورا شديدا، وكانوا يعتقدون أن حياتهم تنتهى بالموت، وأنه لا حياة بعد ذلك، وتردد ذلك على ألسنتهم كثيرا فى القرآن الكريم، كقولهم: نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

فإذا جاء القرآن الكريم ليحدثهم عن اليوم الآخر وحياة أخرى فيها ثواب وعقاب وجنة ونار فليقاوموه، فالفزع من البعث بعد الموت هو طابع الكافرين فى كل زمان ومكان.

رابعا: متابعة الآباء والأجداد:

فإذا كان آباؤهم قد عبدوا الأصنام فليتابعوهم على ذلك، بل هم اعتبروا اعتناق الإسلام خروجا على ذلك وخيانة لآبائهم وأجدادهم، حتى لو كان هؤلاء الآباء والأجداد لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. ولقد سخر القرآن الكريم من هذه المتابعة العمياء، ونعى عليهم إصرارهم على الشرك لمجرد أن آباءهم كانوا مشركين، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** (١٧٠) ﴾ [البقرة].

خامسا: الخوف على وضعهم السياسى وعلى تجارتهم:

لقد تصور القرشيون أن الإسلام سيؤثر سلبا على مكانتهم بين العرب، وكذلك على تجارتهم وكانوا مخطئين فى ذلك؛ فالإسلام لم يأت ليسلبهم مكانتهم أو يقضى على تجارتهم، بل جاء ليرفع تلك المكانة إلى أعلى عليين، ويجعلهم سادة الدنيا، والملاحظ أن زعماء مكة الذين عادوا الرسول ﷺ وحاربوه ما يقرب من عشرين عاما عندما وضحت لهم الحقائق وأدركوا ما يحمله لهم الإسلام من عزة وكرامة وسؤدد تنافسوا فى الجهاد فى سبيله ـ وخصوصا بعد فتح مكة ـ وكانوا كأنهم يريدون أن يعوِّضوا ما فاتهم من الجهاد مع رسول الله ﷺ، وأن يكفِّروا عن مواقفهم العدائية ضده.

أساليب قريش فى مقاومة الدعوة الإسلامية:

لكل ما تقدم من أسباب رفعت قريش راية العصيان لا بل أعلنت عليه حربا شعواء منذ اللحظة الأولى لإعلان الدعوة الإسلامية وصبت على المسلمين نقمتها وأرتهم العذاب ألوانا، ولم يسلم الرسول ﷺ نفسه من قسوتها ووحشيتها، رغم أن عمه أبا طالب وبنى هاشم كانوا يقفون معه ويدافعون عنه إلا أنه كان كثيرا ما يتعرض للأذى والإهانة.



ولا يتسع المقام هنا لشرح كل مساءات أهل مكة نحو الإسلام والمسلمين، فعلى الجملة عذبوا المسلمين عذابا بدنيا، مات من جرائه بعضهم - مثل ياسر وزوجه سمية - كما سبقت الإشارة، وعذابا معنويا بالإهانات والسخرية والازدراء، لدرجة أنهم أجبروا عددا كبيرا منهم على الهجرة إلى الحبشة فى العام الخامس من البعثة، كما أنهم حاصروهم وقاطعوهم اقتصاديا واجتماعيا لمدة ثلاث سنوات وهم فى شِعب أبى طالب، فقد كانوا لا يبيعون لهم شيئا، ولا يشترون منهم شيئا ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم وهذا أقسى ما يمكن أن يتعرض له الناس فى بلد كمكة المكرمة، فلما فشلت تلك الأساليب ووجدوا المسلمين والنبى ﷺ على رأسهم صامدين مصرين على الإيمان بدينهم، حاولوا أن يجربوا مع النبى ﷺ أساليب الترغيب، فقد عرضوا عليه أن يملّكوه عليهم إن كان يريد ملكا أو يعطوه ما شاء من الأموال إن كان يريد مالا، أما إن كان ما يعانيه هو نوعا من المرض فهم على استعداد لبذل أموالهم لمعالجته، والحق، إن النبى ﷺ لم يكن طالب ملك أو مال، ولم يكن به مرض - حاشا لله - بل كان المرض فى عقولهم وقلوبهم هم.

أما النبى ﷺ فلم يكن له هدف سوى أن يبلغ رسالة ربه كما أمره سبحانه وتعالى، وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور وأن يضعهم على طريق المجد الحقيقى والعزة والكرامة؛ ولذلك حسم الأمر بجملة واحدة مع عمه أبى طالب عندما عرض عليه أن يقبل منهم عرضا من عروضهم فقد قال ﷺ لعمه: «والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

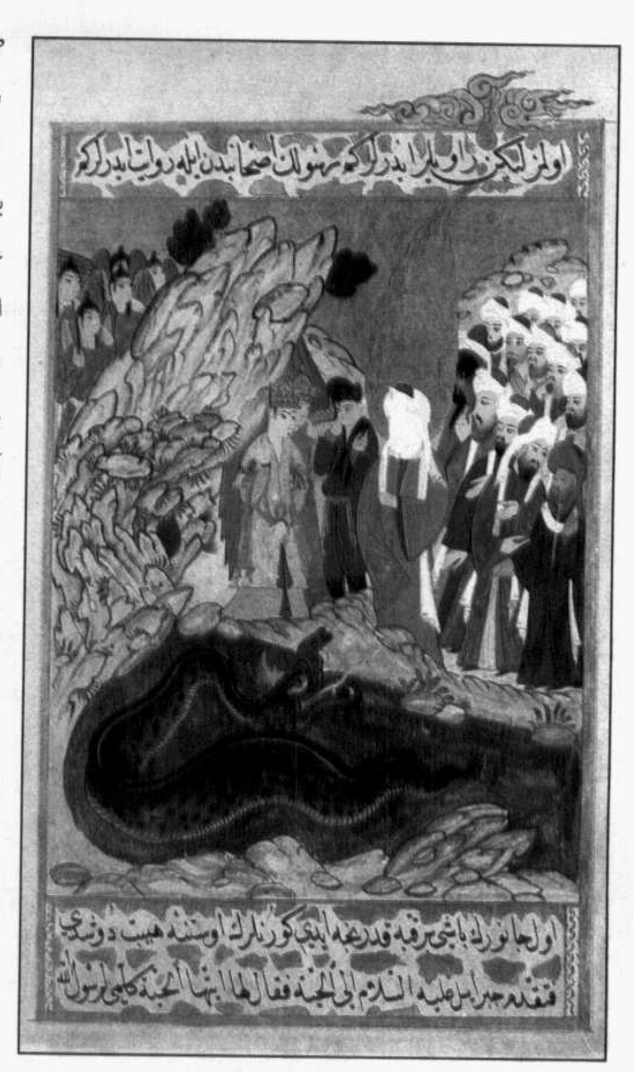
عام الحزن ورحلته إلى الطائف:

قاوم النبى ﷺ، والمسلمون معه، كل أساليب قريش وصبروا على أذاهم وخرجوا من ذلك الحصار القاسى، ليستأنف دعوته فى مكة وبين من يفدون إليها من العرب فى موسم الحج، وبينما هو يمضى فى طريق دعوته إذا به يفقد أهم نصيرين له،عمه أبا طالب، وزوجه خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، فقدهما تباعا بعد انتهاء المقاطعة فى العام العاشر من البعثة وقد حزن النبى ﷺ لوفاتهما أشد الحزن، بل سمى عام وفاتهما عام الحزن.

وقد حدث ما توقعه ﷺ من قريش بعد وفاة أبى طالب، وخديجة بنت خويلد فقد اشتد أذى قريش عليه، وسدت فى طريقه كل السبل، ففكر فى اللجوء إلى إحدى قبائل العرب القوية عساه أن يجد من يؤمن به ويعينه وينصر دعوته فكانت رحلته إلى الطائف إلى قبيلة ثقيف، فلما كلمهم وعرض عليهم الإسلام وطلب منهم الوقوف معه أعرضوا عنه بل سبوه وشتموه وأغروا به



صبيانهم وسفهاءهم فضربوه بالحجارة، ولقد عز عليه وهو الذى جاءهم بعز الدنيا والآخرة أن يقابل منهم بهذا الأذى، ولقد عبر ﷺ عن آلامه من هذا الموقف فى تلك النجوى للخالق سبحانه وتعالى: حيث قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».



تصور رمزى لحياة النبى محمد ﷺ من مخطوط تركى سنة ١٥٩٤

كتاب سيرة النبى محمد فى عهد السلطان مراد الثالث

ومع أنهم بالغوا فى إهانته، وكان موقفهم منه من أشد المواقف التى واجهها فى حياته فإنه كان رحيما بهم حريصا على هدايتهم، فقد روت كتب السنة والسيرة أن جبريل عليه السلام جاءه فى تلك اللحظة ومعه ملك الجبال وعرض عليه أن يطبق عليهم الأخشبين - جبلى مكة - إن أراد، ولكنه الرسول العظيم الذى أرسله ربه رحمة للعالمين قال: «لا يا أخى يا جبريل - ولكن أقول:



اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا».

لم ييأس النبى ﷺ من دعوة القبائل العربية ـ بعد موقف ثقيف منه ـ بل أخذ يعرض نفسه فى مواسم الحج على وفود القبائل التى كانت تحضر إلى مكة، فقد عرض نفسه على وفود قبائل كندة وكلب وبنى عامر، وبنى حنيفة.. إلخ ولكن أحدا منهم لم يؤمن به ولم يعده بنصرته، وكان هذا الموقف الذى اتخذته تلك القبائل يرضى قريشا، التى كانت تحسب لذلك ألف حساب، فقد كان ما تخشاه قريش أن تؤمن قبيلة كبيرة ذات بأس وقوة بمحمد ودعوته، وعندئذ ستكون الحرب وما تجره من ويلات، ولذلك كانت قريش تترصد الموسم وتضع الخطط وأساليب الحرب النفسية والدعاية المسمومة ضد النبى ﷺ ودعوته لصرف القبائل عن الإيمان به، فعلى سبيل المثال فقط ـ لا الحصر ـ اجتمع الملأ من قريش فى أحد المواسم إلى الوليد بن المغيرة ـ وكان أحد أئمة الشرك وزعمائهم فى مكة ـ ليتشاوروا فى ماذا يصنعون وما هى خطتهم لمواجهة وفود العرب فى موسم الحج لإقناعهم بعدم لقاء محمد ﷺ وسماع دعوته، فقد قرروا الاتفاق على خطة واحدة ينفذونها معا، حتى لا يختلفوا ويكذب بعضهم بعضا، واقترح بعضهم أن يقولوا للوفود إن محمدا كاهن، ولكن الوليد بن المغيرة لم يقبل هذا الرأى وقال لهم: إن ما يقوله محمد يختلف عن زمزمة الكهان فقال آخر: نقول إنه مجنون فقال الوليد: إنكم لا تستطيعون أن تقيموا دليلا على أنه مجنون، فجاء اقتراح ثالث، نقول: إنه ساحر، فقال الوليد: إن محمدا ليس ساحرا، فهو لا ينفث فى العقد ولا يأتى من عمل السحرة شيئا، عندئذ سكتوا جميعا منتظرين ماذا يقول الزعيم، وقالوا له: فماذا تقول أنت؟ قال: الرأى عندى أن تقولوا إنه ساحر البيان أى أوتى من سحر البيان ما يستطيع به أن يفرق بين الرجل وزوجه وبين الرجل وعشيرته ونستطيع أن نقيم الدليل على ذلك، أليس قد تابع محمدا كثيرون وفارقوا أهلهم وعشائرهم فوافق الجميع على هذا الرأى، وانبعث رجالهم بين وفود الحجاج يروجون هذه الفرية، والخلاصة أن قريشا سدت كل الطرق فى وجه الدعوة الإسلامية ومنعها من الانتشار والانطلاق، ولكن هذه الدعوة الخالدة التى جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور كان لابد لها من الانتشار والانطلاق، وإذا كانت قريش قد سدت فى وجهها الطرق فإن الله سبحانه وتعالى قد هيأ لها مكانا آخر للانطلاق وقوما آخرين ادخرهم لها ليكونوا أنصار الله ورسوله ودعوته، وهم أهل يثرب.

تباشير النصر تأتى من يثرب:

أثناء عرض النبى ﷺ دعوته على القبائل فى موسم الحج شاءت إرادة الله أن يلتقى بوفود من أهل يثرب كانوا ستة رجال، فعرض عليهم الإسلام فشرح الله صدورهم له وأسلموا ورجعوا



إلى قومهم وأخبروهم خبرهم مع رسول الله ﷺ فقالوا: لعله هو النبى الذى كانت توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه فأسلم كثيرون منهم، وفى موسم الحج التالى ـ العام الثانى عشر من البعثة جاء منهم اثنا عشر رجلا، أعلنوا إسلامهم بين يدى النبى ﷺ، وبايعوه بيعة العقبة الأولى، وبعث معهم مصعب بن عمير، رضى الله عنه، ليعلمهم القرآن وشعائر الإسلام، وقد نجح مصعب بن عمير فى مهمته نجاحا باهرا، وفشى الإسلام فى يثرب حتى لم يبق بيت فيها إلا وفيه من أسلم، وآية ذلك ما حدث فى الموسم التالى ـ العام الثالث عشر من البعثة ـ فقد جاء إلى النبى ﷺ منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وأبدوا استعدادهم لاستقبال رسول الله ﷺ فى بلدهم والدفاع عنه ومنعه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم، فكانت بيعة العقبة الثانية أو الكبرى التى سميت بيعة القتال، والتى تعد أخطر وأهم حدث فى تاريخ الإسلام فقد كانت مقدمة لانطلاقته الكبرى ونشره فى بلاد العرب وإقامة الدولة الإسلامية وبناء المجتمع الإسلامى، ومن ثم الانطلاق خارج جزيرة العرب إلى بقية العالم المعروف آنذاك.

هجرة النبى ﷺ إلى يثرب:

بعد لقاء النبى ﷺ برجال بيعة العقبة الثانية، بدأ أصحابه فى الهجرة إلى يثرب ووجدوا هناك من إخوانهم ـ الأنصار ـ كل كرم وترحيب، سجله الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم. قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)** ﴾ [الحشر]، وبقى النبى ﷺ فى مكة ينتظر الإذن من الله بالهجرة، وكانت قريش قد علمت بأمر بيعة العقبة وأن أهل يثرب قد تعهدوا لرسول الله ﷺ بنصرته والدفاع عنه ضد كل من تسول له نفسه النيل منه، وهنا انزعجت قريش وقدرت خطورة ذلك الذى حدث عليها، فها هم أصحاب محمد قد هاجروا إلى يثرب، ولم يبق فى مكة إلا هو وعدد قليل من أصحابه، مثل أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، وقدرت قريش أن محمدا لو هاجر ولحق بأصحابه هناك، فسوف يشتد ساعده وتزداد قوته، وقد يغزوهم فى عقر دارهم؛ لذلك عزموا على قتله، بعد اجتماع خطير عقدوه فى دار الندوة، وقد علم النبى ﷺ بأمر ذلك الاجتماع وأنهم قرروا قتله، وعلى الفور ذهب إلى دار صديقه أبى بكر وأخبره الخبر، وأن الله أذن له فى الهجرة وأنه سيصحبه معه، ففرح أبوبكر فرحا عظيما بصحبة النبى ﷺ فى هذه الرحلة الفريدة فى



التاريخ، حيث اختاره هو من بين أصحابه يشترك معه فى وضع خطة محكمة للهجرة، اتخذت فيها جميع الأسباب التى تكفل لها النجاح والتى يقدر عليها البشر، ثم يكون النجاح والنصر من عند الله.

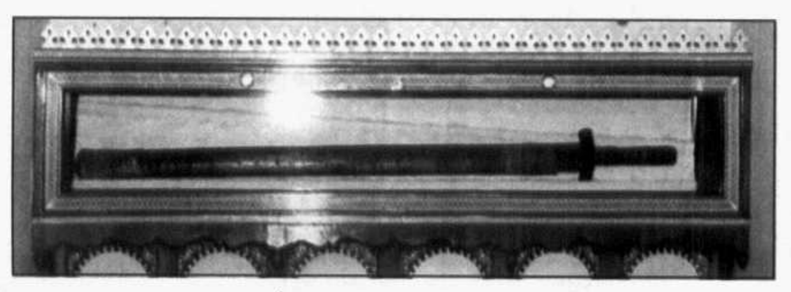
النبى ﷺ فى يثرب:

بعد رحلة مثيرة نجا النبى ﷺ من ملاحقة قريش وترصدها له ونجح فى الوصول إلى يثرب ليجد الأنصار فى انتظاره، وقد استقبلوه استقبالا يليق بمقامه، استقبلوه وهم ينشدون بين يديه ذلك النشيد الخالد:

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبا يا خير داع

بدأ النبى ﷺ لحظة وصوله إلى يثرب ـ التى ستصبح من الآن المدينة المنورة ـ فى تأسيس مسجده وبناء دولته، وإعداد جيشه الذى سيحمى به دعوته ويدافع عن دولته، فالحق أى حق لابد له من قوة تدافع عنه وتحميه، وقد كان النبى ﷺ على يقين من أن أهل مكة لن يدعوه فى دار هجرته ينشر دينه ويبلغ دعوته، فكان لابد من إعداد القوة لكسر شوكتهم وإزاحتهم من طريق الدعوة، سيما وأنه يعلم أيضا أن بقية قبائل العرب لن تقبل على الدعوة الإسلامية ما دامت قريش تناصبها العداء.

بعد بناء المسجد ـ الذى أصبح مكانا للصلاة، ثم مقرا للدولة الإسلامية - أخذ النبى ﷺ فى استكمال بقية أسس تلك الدولة وأجهزتها فقد آخى بين المهاجرين والأنصار لتقوية الروابط



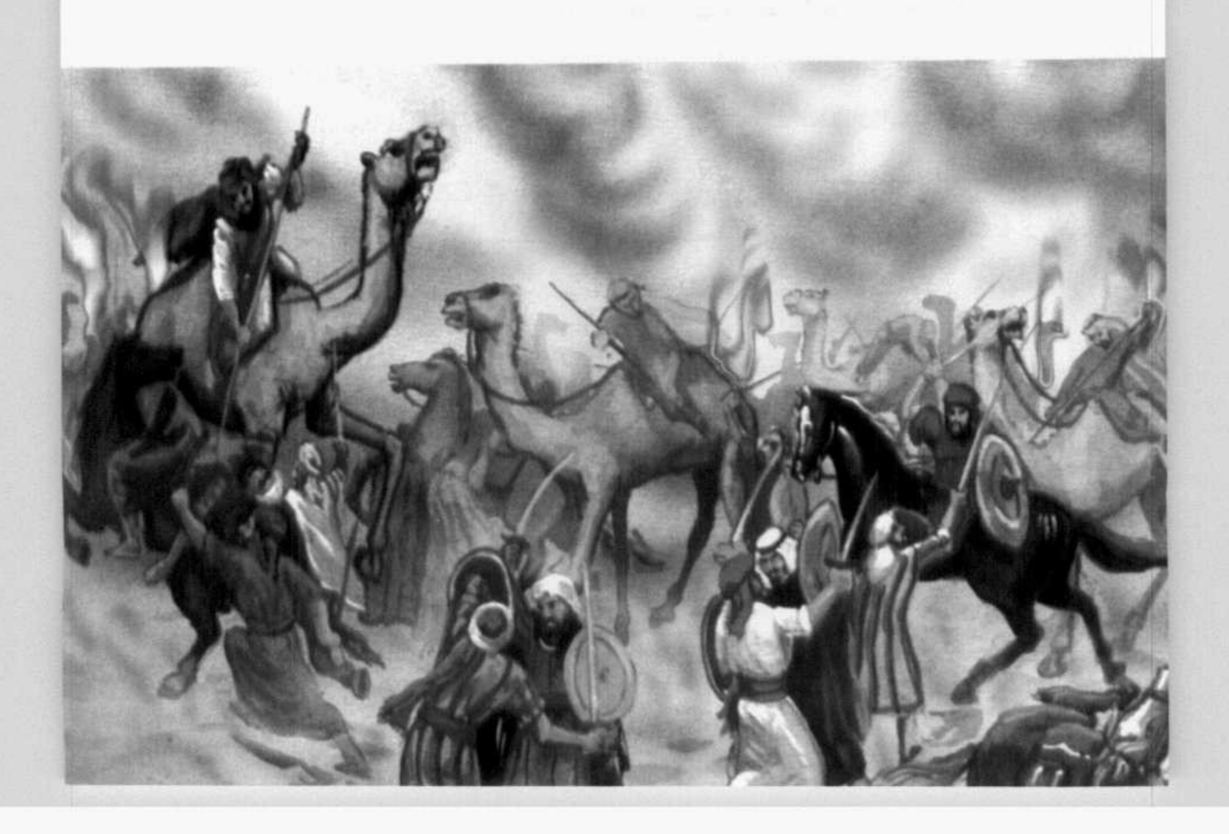
سيف النبى ﷺ - معروض فى المشهد الحُسينى بالقاهرة



بينهم، ثم عـقد معـاهدة مع اليهود الذين رفـضوا الدخـول فى الإسلام، فلم يجبرهم على ذلك لأنه: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ... (٢٥٦)﴾ [البقرة]، وقد جاءت تلك المعاهدة آية فى العدل والتـسامح وإتاحة حرية العقيدة، فـرغم بقاء اليهود على دينهم إلا أنه اعتبرهم مواطنين لهم كافة الحقوق ما داموا ملتزمين بواجبات المواطنين، وأولهـا الدفاع عن المدينة ضـد أى عدوان عليـها من الخـارج، وهو الأمر الذى لم يلتزم به اليهـود مطلقا بل خانوا وغدروا مما اضطر النبى ﷺ إلى طرد بعضهم من المديـنة، كبنى قينقاع وبنى النضيـر وقتل البعضُ الآخر كبنـى قريظة الذين خانوا النبى ﷺ وغدروا به وانضموا إلى أعدائه فى عام الأحزاب.



لقد غزا النبى ﷺ بنفسه سبعا وعشرين غـزوة، وجرد سبعا وأربعين سرية بقيادة أصحابه، هذا المجموع الكبير من الغزوات والسرايات ـ ٧٤ ـ كان عدد شهداء الإسلام فيه نحو ١٥٠ شهيدا





وقتلى قريش، وهى أكبر أعدائه ـ آنئذ ـ كانوا نحو من مائة وعشرة قتلى، هذا العدد القليل من شهداء الإسلام، وقتلى أعدائه يعكس حرص النبى ﷺ على حقن الدماء، وأن الحرب عنده لم تكن غاية فى حد ذاتها، بل وسيلة لكسر شوكة الأعداء وإقامة السلام، وإذا كان يمكن تحقيق الهدف دون حرب فإنه لم يكن يلجأ إليها قط ـ كما حدث عام الحديبية.

والنبى ﷺ لم يكن يحارب إلا الحرب المشروعة، والتى يسوغها الإسلام، وهى الحرب التى تكون للدفاع عن العقيدة عندما تكون مهددة من أعدائها أو الدفاع عن النفس والمال والعرض أو الدفاع عن المستضعفين فى الأرض.

ومن أعظم غزوات الرسول ﷺ وأكبرها أثرا فى تاريخ الإسلام غزوة بدر الكبرى التى انتصر فيها على مشركى مكة، والتى كانت فى السابع عشر من شهر رمضان سنة ٢هـ والتى سماها الله فى كتابه العزيز «يوم الفرقان»؛ لأنه فرق بها بين الحق والباطل، فقد اندحر فيها الشرك، ووضعت حدا لغطرسة قريش وخيلائها حيث انتصرت القلة المسلمة (٣١٣ مسلم) بقيادة النبى ﷺ على الكثرة المشركة من أهل مكة (٩٥٠ مشركا) حيث قتل منهم سبعون من صناديدهم وأسر ستون، واستشهد من صحابة رسول الله نحوا من أربعة عشر رجلا.

كانت خسارة قريش فادحة، ولم تكن تتوقع أن تهزم، فضلا عن أن تخسر هذا العدد الكبير من القتلى والأسرى؛ ولذلك أخذت تعد العدة للثأر والانتقام وكان النبى ﷺ على يقين من أن قريشا لابد من أن تعد لمعركة أخرى تسترد بها هيبتها بين العرب فما أن استدار العام حتى جاءته الأخبار بأن جيشا قرشيا خرج من مكة قوامه ثلاثة آلاف رجل قاصدا المدينة فاستعد هو بدوره للقائهم، ودارت المعركة بين المسلمين (٧٠٠) بقيادة النبى ﷺ وبين جيش مشركى مكة، (٣٠٠٠) رجل بقيادة أبى سفيان بن حرب عند جبل أحد فى شهر شوال سنة ٣هـ.

غزوة أحد:

كان النصر حليف المسلمين أول النهار ثم انقلب الموقف عندما خالف الرماة أوامر الرسول ﷺ وتركوا مواقعهم التى عينها لهم. وعندئذ انقض عليهم خالد بن الوليد الذى كان قائد فرسان جيش مكة وتحول النصر إلى هزيمة، وخسر المسلمون هذه المعركة وكان موقفا صعبا للرسول وللمسلمين، ولكنه كان فى الوقت نفسه درسا عظيما تعلمه المسلمون، فقد تعلموا من بين ما تعلموا أن الانضباط وطاعة أوامر القائد من ضرورات الحرب، والتخلى عنها يؤدى إلى الهزيمة



والخسـارة، ولكن المسلمين إذا كانوا قـد خسروا معـركة أحد فإنهم لم يخـسروا الحرب ضـد قريش؛ لأن النصـر والهزيمة فى مـثل هذا الصراع يكون بحـساب الجولة الأخيرة، فالذى يكسب الجولة الأخيرة هو الذى يكسب الحرب مهما خسر من معارك فى ثنايا الصراع، فقد كـسب النبى ﷺ الحرب ضد قريش وفتح مكة فى العام الثامن من الهـجرة ودخلت قريش كلها فى الإسـلام، وكان من أبنائها من أصبحوا من كبار الفاتحـين، وهذا كله بفضل الله أولا ثم بفضل صبر وجهاد الرسول ﷺ.

غزوة الأحزاب:

مع أن أهل مكة كسبوا مـعركة أحد إلا أنهم أدركوا أنهم لم يحقـقوا هدفهم النهائى، وهو القضـاء على النبى ﷺ ودعوته ولم يكن مـشركو مكة فـقط هم الذين يهدفون إلى القـضاء على الإسلام، بل كان اليهـود يشاركونهم فى ذلك بدرجة أشد؛ ولذلك لما رأى اليهود أن مـعركة أحد مع قساوتها لم تنل من عزيمـة النبى ﷺ وصحابته فقد قرروا القيام بعـمل جماعى وهو حشد كل القوى المناوئة للإسلام وأول هذه القوى قريش بطبيعة الحال للقضاء عليه قضاء مبرما.

وقد تزعم هذه الحركـة الخطيرة حيى بن أخطب زعيم يهود بـنى النضير، ذلك الرجل الذى انطوى قلبه على حقد دفين وكره شـديد للنبى ﷺ ودعوته، ذهب حيى على رأس وفد من زعماء يهود بنى النضير وبنى قـينقاع إلى مكة وعرض على مشركيها خطتـه التى أعدها وهى حشد حلف يضم مشركى مكة وقـبائل غطفان وبنى أسد للقضاء على النبى ﷺ ودعـوته، ووعدهم بأن يجعل يهود بن قريظة الذين لا يزالون يقـيمون بالمدينة ينضمون إليهم رغم وجـود معاهدة بين النبى ﷺ وبينهم، وقد نجح فى كل ذلك واستطاع أن يحشد عشرة آلاف مقاتل للهجوم على المدينة، واقتلاع الإسـلام من جـذوره، ولم يكن يسـاوره شك فى نجاح خـطته، ولكـن ما إن وصلت جـحـافل الأحزاب إلى المدينة حتى فوجئوا بوجود خندق يحيط بها من الجهة الشمالية الغربية ليكمل تحصينها حيث كـانت محصنة من بقيـة الجهات بغابات كـثيفة من الأشـجار والنخيل يصعب علـى خيول المشركين اقتحامها، وأسقط فى أيدى المشركين وفقدوا كل وسيلة للتغلب على اقتحام ذلك الخندق الذى حفره الرسول ﷺ أخذا برأى سلمان الفـارسى رضى الله عنه، وطوال ما يقرب من شهر لم يحدث بينهم سوى بعض المراماة ومقتل فارس العرب المعلم؛ عمرو بن عبد ود على أيدى على بن أبى طالب رضى الله عنه، ومع ذلك فقد كان الموقف صـعبا على المسلمين، وليس هناك أدق ولا



أبلغ من وصف القرآن الكريم للحالة التى كان عليها المسلمون حيث قال تعالى: ﴿ **إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١)** ﴾ [الأحزاب]، عندما بلغت الأمور هذا الحد من الخطورة واشتد الكرب ليميز الله بين المسلمين الصادقين وبين المنافقين جاءت نسائم النصر تترى، فقد أسلم أحد المشركين وهو نعيم بن مسعود، فكلفه الرسول ﷺ بإيقاع الشقاق بين المشركين ويهود بنى قريظة، وقد نجح فى ذلك نجاحا هائلا، ثم هبت ريح عاصفة على المشركين قلعت خيامهم وأكفأت قدورهم عندئذ أدرك قائد المشركين أبو سفيان صعوبة البقاء فنادى بالرحيل وتبعه بقية الأحزاب ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)** ﴾ [الأحزاب].

أما يهود بنى قريظة الذين خانوا عهد الرسول ﷺ وغدروا به واستجابوا لحيى بن أخطب وانضموا للأحزاب بغية القضاء على الإسلام من جذوره فقد حل بهم عقاب الله تعالى حيث أمر رسوله بالقضاء عليهم، قال تعالى عنهم: ﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)** ﴾ [الأحزاب].

النبى ﷺ يصالح أهل مكة:

أدرك النبى ﷺ أن النصر الذى منحه الله إياه على الأحزاب قد جعل ميزان القوة فى صالحه، ومع ذلك لم يستغل قوته فى الضغط على قريش ولم يحاول إذلالها، لأنه يعرف أصالة معدنهم فهو يريدهم أحياء ينصرون الإسلام برجولتهم وشجاعتهم؛ ولذلك فقد قرر فى العام السادس الهجرى - بعد الأحزاب بسنة - أن يؤدى العمرة هو وأصحابه بناء على رؤيا رآها، وبالفعل سار إلى مكة يسوق الهدى أمامه وخلفه نحو ألف وأربعمائة من أصحابه، وما إن علمت قريش بذلك حتى هاجت وقررت منعه بالقوة من دخول مكة، وكان هذا موقفا ظالما منهم، لأن البيت الحرام ليس ملكا لقريش بل هو لكل الناس مثابة وأمنا، ومع ذلك فقد صمم الرسول ﷺ على الوصول معهم إلى حل سلمى تجنبا لإراقة دماء يدخرها لنصرة الإسلام، فانحاز بصحابته إلى وادى الحديبية، ودارت بينه وبين قريش مفاوضات طويلة ومضنية، وأخيرا أرسل لهم عثمان بن عفان - رضى الله عنه - الذى عاد من عندهم ليخبره بتصميمهم على منعه من دخول مكة هذا



ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى
للعالمين فيه ايات بينات مقام ابرهيم ومن دخله
كان امنا ولله على الناس حج البيت من استطاع
قبة عباس
قبة فراش



العام، والسماح له بدخولها فى العام القادم وقدر رأى رسول الله ﷺ أن تأخير العمرة سنة وحقن دماء المسلمين أفضل من الحرب، وقبل كل شروط أهل مكة التى ظنوها انتصارا ولكن سرعان ما تكشفت لهم أوهامهم وأن صلح الحديبية لم يكن نصرا لقريش بل كان فتحا مبينا للرسول ﷺ.



كان من بين شروط صلح الحديبية وقف الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين ولكن قريشا نقضت شروط الصلح حيث ناصرت حلفاءها بنى بكر على خزاعة حلفاء النبى ﷺ قبل مضى سنتين على المعاهدة، وفى خلال هاتين السنتين قام النبى ﷺ بأعمال جليلة، منها القضاء على شوكة اليهود فى خيبر، ومنها مخاطبة ملوك ورؤساء العالم ودعوتهم إلى الإسلام، تأكيدا لعالميته.

ولما استغاثت خزاعة بالنبى ﷺ لبى النداء على الفور وسار إلى مكة يقود عشرة آلاف مسلم، ومع أنه امتلك هذه القوة الكبيرة إلا أنه لم يستخدمها فى إهلاك أهل مكة وتدميرهم، ولم يضع فى حساباته مساءاتهم معه طوال أكثر من عشرين عاما، بل كان حريصا على دخول مكة دون قتال، لأنها بلد الله الحرام من ناحية ولأنه كره إراقة الدماء من ناحية ثانية، وحقق النبى ﷺ هدفه وتم له فتح مكة دون قتال تقريبا ودخل البيت الحرام وحطم الأصنام وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** (٨١) ﴾ [الإسراء].

وجاءه أهل مكة جميعا، وكانوا زهاء ألفى رجل، فنظر إليهم نظرة إشفاق لا نظرة تشفى وقال لهم: «ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ: اذهبوا فأنتم الطلقاء» هذا هو العفو عند المقدرة وصدق من سماه الرؤوف الرحيم، ووصفه بأنه جاء رحمة للعالمين.



أثر فتح مكة فى انتشار الإسلام بين العرب فى العالم:

ظلت الغالبية العظمى من أهل مكة تناصب النبى ﷺ العداء أكثر من عشرين سنة، وعداء أهل مكة للإسلام كان عقبة كبيرة أمام انتشاره بين العرب ثم فى العالم بعد ذلك، لأن معظم العرب كانوا يحسبون حسابا لقريش ويقدرونها ويقتدون بها، ولا يريدون إغضابها، فإذا كانت قريش تحارب رسول الله ﷺ فكيف يؤمنون به ويغضبونها، بل إن كثيرين منهم تحالفوا معها ضده كما حدث فى غزوة الأحزاب، ولم يشذ عن هذا الموقف إلا أهل المدينة، الأوس والخزرج، فى البداية فهؤلاء هم الذين هداهم الله وأراد لهم الخير والعزة والكرامة فأقبلوا على الإسلام، ليس هذا فحسب، بل قبلوا عن رضا كامل وطواعية مطلقة وعن حب عميق، قبلوا أن يهاجر رسول الله ﷺ إلى مدينتهم لينشر رسالته ويقيم دولته، وهم يعلمون أن ذلك سيؤدى إلى الحرب بينهم وبين قريش، ومع ذلك قبلوا ذلك التحدى الهائل، ووقعوا مع رسول الله ﷺ بيعتى العقبة، وقد سميت الثانية منهما بيعة القتال وقاتلوا معه فى كل غزواته ونصروه وفازوا بهذا اللقب العظيم الذى منحه الله تعالى إياهم وهو أنصار الله ورسوله وثناء الله عليهم فى كتابه ورسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله أكثر من أن يحصى، وكان النبى ﷺ يعلم حقيقة جوهر قريش وأنه جوهر أصيل تراكمت عليه طبقات من الجاهلية والوثنية فإذا أزيلت هذه الطبقات وظهر الجوهر الأصيل فإنه سيكون نافعا؛ لذلك صبر عليهم طوال هذه السنين وتحمل ما تحمل من أذاهم حتى أسلموا فى النهاية جميعا، وعفى عنهم عفوا مطلقا وقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، إذن فهو يريد سلامتهم لا إهلاكهم، ولو كان يريد إهلاكهم لقبل ما عرضه عليه جبريل عليه السلام عندما عاد من الطائف وهو حزين لما ناله من أهلها من الأذى والإهانة، فقد جاءه جبريل ومعه ملك الجبال، وقال له لو شئت لأطبقت لك عليهم الأخشبين - جبلى مكة - ولكنه ﷺ رفض ذلك العرض وقال: لا يا أخى يا جبريل ولكن أقول: اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا.

إذن كان ﷺ حريصا على سلامتهم لأنه يعرف حقيقتهم، كما يعرف أن معظم العرب يحجمون عن الإيمان به إكراما لقريش؛ ولذلك كرس كل جهده لجذب قريش إلى الإسلام بكل الوسائل وصبر وصابر وجاهد حتى فتح الله له مكة المكرمة، وبفتحها فتحت الطرق كلها أمام



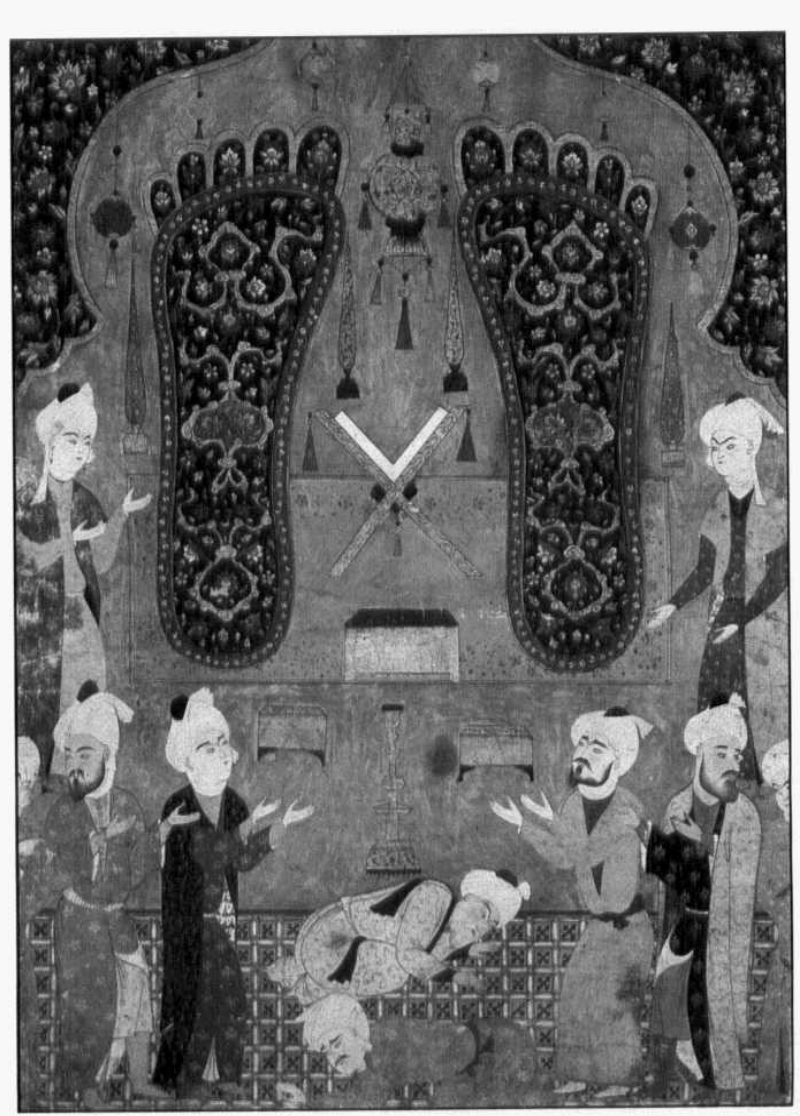
الدعوة الإسلامية، ولكى نوضح هذا نلفت النظر إلى أن الذين أسلموا من أهل مكة قبل الهجرة كانوا قليلين، وفى غزوة بدر كان عدد المسلمين الذين حضروها من المهـاجـرين والأنصار أكـثـر قليـلا من ثلاثمـائة رجل، وهؤلاء هم أغلب المسلمين يومـئذ، وفى غزوة أحد فى العـام الثالث الهجرى كان عـدد المسلمين الصادقين الذين حضروها نحوا من سـبعمائة رجل، وهكذا حتى إذا وصلنا إلى الحديبية فى العام السادس الهجرى وجدنا عدد المسلمين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ لأداء العمرة كانوا نحوا من ألف وأربعمائة، وبعد صلح الحديبية عندما أدرك العرب أن موقف قـريش قد لان بعض الشيء، وأن مكة فتحت أبوابهـا أمام رسول الله ﷺ ليؤدى عمـرة القضاء فى العام السابع الهجـرى عندئذ أدرك بقية العرب أن مقاومـة قريش للدعوة الإسلامية قد تلاشت بل قد انتهت، وأن فتح مكة لم يعد أكثر من وقت لن يطول؛ ولذلك تسارع العرب إلى الدخول فى الإسلام، حـتى من أبناء مكة أنفسهم فقد أسلم بعد عمـرة القضاء رجلان من خيرة رجالات مكة، وسيكونان من خيرة رجالات الإسلام، بعـد إسلامهما وهجرتهما؛ وهما سيف الله خـالد بن الوليد رضى الله عنه، وداهية الحرب والسـياسة عمـرو بن العاص رضى الله عنه، هذان البطلان اللذان أصبح لهما فى تاريخ الإسلام شأن عظيم.


وقفة عرفات التى تشتاق إليها الأفئدة





فى الحديبية فى العام السادس الهجرى كان عدد المعتمرين مع رسول الله ١٤٠٠ رجل وبعد عامين كان عدد جيش الرسول ﷺ الذى فتح به مكة عشرة آلاف، وبعد عام من فتح مكة أى فى العام التاسع الهجرى كان عدد جيش الرسول ﷺ الذى توجه به لمواجهة الروم لما علم أنهم يريدون مهاجمته فى المدينة - كان عدد ذلك الجيش ثلاثين ألفا، وهو جيش العسرة، وقد عسكر الرسول ﷺ بذلك الجيش العظيم فى تبوك عندما علم أن الروم قد هابوه وخافوا منه وانسحبوا إلى داخل الشام، فلم يلاحقهم لأنه لا يريد الحرب من



رسم فى مسجد من الفالنامة - القديمة رمزان إلى نعلى رسول الله ﷺ - ق١٦



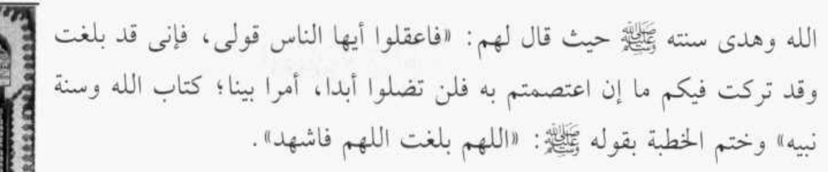
أجل الحرب، وإنما لردع أعداء الإسلام فإذا ارتدعوا وخافوا فلا ضرورة لحربهم، وهذا دليل ناصع على أن الإسلام دين السلام، وبعد غزوة تبوك تقاطرت الوفود من جميع أقطار شبه جزيرة العرب على رسول الله ﷺ فى المدينة تعلن إسلامها وبيعتها، ولكى تتصور كثرة الأعداد التى سارت خلف رسول الله ﷺ لأداء الحج فى حجة الوداع فى العام العاشر الهجرى، فقد كانوا أكثر من مائة ألف مسلم، وقد قدرهم بعض المؤرخين بمائة وأربعة عشر ألفا.

حجة الوداع وآخر عهد رسول الله ﷺ بمكة المكرمة

فتح النبى ﷺ مكة المكرمة فى العشرين من شهر رمضان من العام الثامن للهجرة، وعفى عن أهلها الذين أسلموا جميعا وكانوا نحو ألفى رجل، وحضروا معه غزوة حنين ضد هوازن وثقيف فى شهر شوال من العام نفسه، وقد أعطاهم الكثير من غنائم تلك الغزوة تأليفا لقلوبهم، وقد رتب شؤون مكة وعين لها أميرا من أهلها وهو عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ثم أدى العمرة - وهى عمرة الجعرانة - ثم عاد إلى المدينة المنورة، وأبرز أحداث العام التاسع للهجرة غزوة تبوك، وبعدها أخذ يستقبل وفود القبائل العربية، التى جاءت من كل حدب وصوب تعلن إسلامها وبيعتها - كما سبقت الإشارة - وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة من العام العاشر للهجرة أحرم ﷺ بحجة الوداع من ذى الحليفة، ليؤدى الفريضة ويعلم المسلمين مناسك الحج حيث قال ﷺ للمسلمين: «خذوا عنى مناسككم» وفى هذه الحجة - وهى الحجة الوحيدة التى حجها - والتى تسمى حجة الوداع لأنه ودع فيه أمته، وحجة الإسلام لأنه لم يحج غيرها، وحجة البلاغ لأنه قال للمسلمين فى خطبة الوداع فى يوم عرفة فى نهايتها «اللهم بلغت اللهم فاشهد».

وفى هذه الخطبة الجامعة لخص ﷺ لأمته مبادئ الإسلام، وبين لهم حرمة الأموال وحرمة الأعراض وحرمة الدماء، وحرمة أكل الربا وحثهم على أداء الأمانة وعلى الحفاظ على الأخوة الإسلامية، كما حثهم على حسن معاملتهم للنساء، وحفظ حقوقهن ثم حذرهم من الشيطان، الذى لا يكف عن الإيقاع بهم والتحريش بينهم، ثم أمرهم أن يسيروا فى حياتهم على هدى كتاب





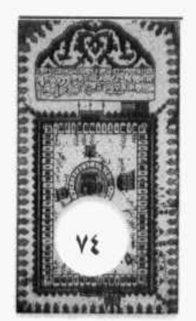
الله وهدى سنته ﷺ حيث قال لهم: «فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا؛ كتاب الله وسنة نبيه» وختم الخطبة بقوله ﷺ: «اللهم بلغت اللهم فاشهد».

وبعد أن أدى ﷺ مناسك الحج عاد إلى المدينة المنورة فى الخامس والعشرين من ذى الحجة للسنة العاشرة من الهجرة وعاش بقية ذى الحجة والمحرم من العام الحادى عشر، وفى أواخر صفر أحس ﷺ بالمرض، الذى أخذ يشتد به حتى فاضت روحه الطاهرة وصعدت إلى بارئها فى يوم الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول للعام الحادى عشر الهجرى، وهو اليوم الذى كان فيه ميلاده وفيه هجرته ثم توديعه الدنيا إلى لقاء ربه.

وقد كان بعض الصحابة أحس بقرب أجل رسول الله ﷺ وهم معه فى حجة الوداع، ففى يوم عرفة نزل عليه قوله تعالى: ﴿ ... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ... (٣) ﴾ [المائدة]، فلما سمعها عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكى، فقيل له ما يبكيك؟ قال: ما بعد الكمال إلا النقصان والنقصان هو وداع رسول الله ﷺ الدنيا.

وهكذا غادر رسول الله ﷺ الدنيا إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ أعظم رسالة سماوية للناس وأخرج الأمة من الظلمات إلى النور، وإذا تأملنا كيف كان حال العرب والعالم حولهم حين بعث ﷺ، حيث كان العرب قبائل متنافرة تعيش فى وثنية مظلمة، والعالم من حولهم يزدريهم ولا يقيم لهم أى وزن، وذلك العالم نفسه - وبصفة خاصة الدول الكبيرة مثل الفرس والروم - يعج بالمظالم والمفاسد، ذلك كله تغير تغيرا كاملا إلى الأفضل والأحسن، فالعرب الذين وجدهم النبى ﷺ أشتاتا متفرقين أصبحوا بفضل الله ونعمته أمة واحدة قوية متماسكة، وبعد وفاة الرسول ﷺ بشهور قليلة انطلقت هذه الأمة العربية فى قلوبها كتاب الله وسنته لتبلغها إلى الناس كما أمرهم الله ورسوله، وسارت تجاهد فى سبيل الله مضحية بالنفس والمال، ونجحت فى نهاية المطاف فى تغيير أحوال العالم وسياسته بالعدل والإحسان والأخوة الإنسانية وما كان لها أن تفعل ذلك لولا الإسلام الحنيف الذى أكرمها الله به،ولولا تربية الرسول ﷺ لها وجهاده العظيم فى نشر رسالته وتأسيس دولته وتكوين أمته فصلوات الله وسلامه عليه، وجزاه عن أمته وعن الإنسانية كلها خير الجزاء.

هذه صفحات قليلة أوجزنا فيها القول حسبما يقتضيه المقام عن مكة المكرمة منذ نشأتها حتى وفاة الرسول ﷺ، نرجو أن تكون هذه الصفحات قد أدت الغرض المطلوب وعلى الله قصد السبيل، ومنه العون والتأييد.





- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس.

أولا - المصادر:

١- تقى الدين محمد بن أحمد بن على الفاسى: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. دار الكتب العلمية - بيروت.

٢- جلال الدين السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم - مطبعة الحلبى - القاهرة.

٣- عبد الملك بن هشام: سيرة النبى ﷺ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. طبع ونشر دار الإفتاء السعودية بالرياض.

٤- عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى - تحقيق فهيم شلتوت - منشورات جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

٥- محمد بن إسماعيل البخارى: صحيح البخارى. طبع مطبعة الحلبى - القاهرة.

٦- ابن كثير: البداية والنهاية: نشر دار صادر - بيروت.

٧- ياقوت الحموى: معجم البلدان - دار صادر - بيروت.

ثانيا: المراجع:

٨- د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ﷺ دار الفكر العربى - القاهرة.

٩- إبراهيم باشا رفعت: مرآة الحرمين - بدون ذكر تاريخ أو مكان الطبع.

١٠- د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام - طبع جامعة بغداد.

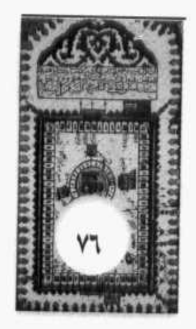
١١- محمد حسنين هيكل: حياة محمد - دار القلم - القاهرة - الطبعة السابعة.

١٢- محمد على الصابونى: مختصر تفسير ابن كثير - نشر دار القرآن الكريم - بيروت.

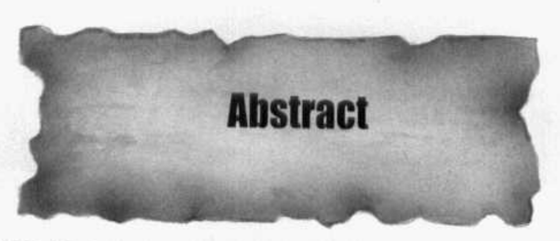




الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة



The City of Makkah is a most important center in Hedjaz. It lies in a barren valley surrounded by mountains. Mecca has different nominations such as Bakka and other names.

The earliest inhabitants of Mecca were Amalicos, then Jarham when Ibrahim, his wife Hager, and their son Ismail arrived to the place.

It is noteworthy that the arrival of Ibrahim's family coincided with the overflow of water from the well of Zamzam.

Next the Yemenites moved to Mecca after the collapse of the dam of Mareb. Khuzaa allied themselves with Bano Ismail, and together they controlled the affairs of Mecca including the catering of the pilgrims to the Holy Shrines of Kaaba. This administration lasted for about three centuries till the arrival of Qurayish under the leadership of Qussi bin Kilab who unified the city's clans. Then the leader of Khuzza conceded the control of Kaaba to Qussi and entrusted him with the keys of the Holy Shrines, and thus Qussi became the king and protector of Mecca, and endeavored to enhance the prestige of his tribe amongst the other Arab tribes.

Qussi was a wonderful administrator who gave special concern to the pilgrims as guests of God. Mecca flourished as a trading mediator between North and South (The Summer and Winter Itinerary).

The status of Qurayish flourished after the Message of the Prophet of God (Peace Be Upon Him), who demolished the idols of El- Kaaba, and introduced the city within the Islamic Umma.

After the winning over of Mecca by the Muslims, the companions of the Prophet stayed in it and transformed the Inviolate Mosque into a center of learning for the study of Islamic law.

However when the Ummyiats took over power as Caliphs, the Qurishites were opposed to them, and Abdallah Ibn El - Zobair took shelter in the city, and declared himself Caliph until he was Martyred at the hands of the Ummyiats.

It is noteworthy that the people of Mecca played a vital role in the Arab conquests, and in spreading Arabic language, and Islamic culture.

Abdel Shafi Abdel Latif



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

Correspondence & Communications:

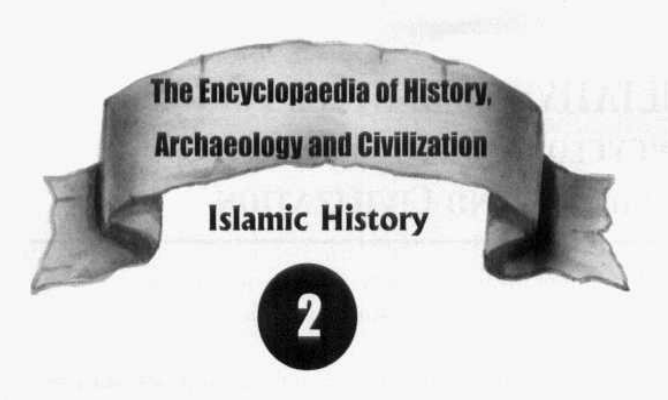
Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

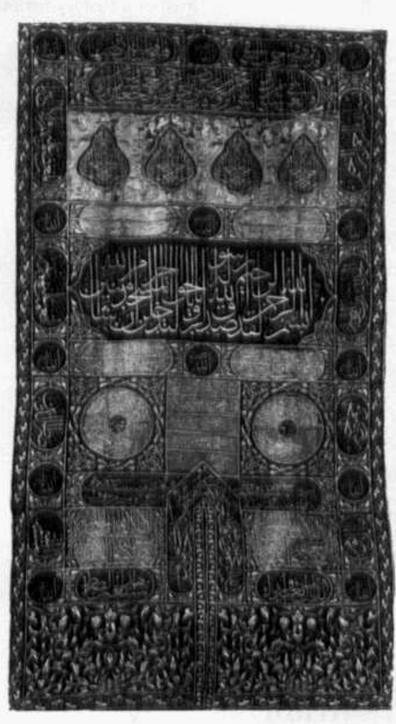
94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 2752984 Fax: 2752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



The Holy City of Makkah in Jahilia and Early Islam



Abdel Shafi Abdel Latif

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Naser City - Cairo
tel : 2752794 . Fax : 2752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com